غُرَباءُ

منصور عيد

بيت الحكمة



hachette
أنطوان .A

غُـرَبـــاءُ

بيت الحكمة
بيروت

غُرَباءُ

منصور عيد

الضّبط اللّغويّ والاستثمار التّربويّ: خليل السّيقلي
الغلاف، التّصميم والرّسم: ساندرا غصن
الدّاخل، الرّسوم: جوزف دكّاش

هاشيت أنطوان
تربية

غُرَبــاءُ

متابعة النَّشر: نيكول عقيقي المصوَّر

التَّصميم المنهجيّ: Christie's *for printing and advertising*

ر.د.م.ك. 6 – 374 – 73 – 9953 – 978

النَّاشر: هاشيت أنطوان Hachette Antoine

الطَّبعة الأُولى 2010

ص.ب. 0656-11، رياض الصّلح

2050 1107 بيروت، لبنان

العنوان التّجاريّ: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست

هاتف: 483513 – 1 – 961

بريد إلكترونيّ: info@hachette-antoine.com

قصّة

غُرَباءُ

-1-

في تِلكَ اللَّيلةِ مِن ليالي كانونَ الأَوَّلِ كانَتْ غُرفةُ السّطحِ في بيتِ الحِمْلاوي، على عادتِها في كلِّ لَيلةٍ، تَسهرُ على ضَوءِ قِنديلٍ شاحِبٍ. فالكهرَباءُ لَم تَصِلْها لأنَّ الحِمْلاوي لَم يُتعِبْ نفسَهُ بإيصالِ الحضارةِ إلى هَذه الغُرفةِ الصّغيرةِ. فمَنْ يَسكنُها لا يَملِكُ البَرّادَ والرّاديو ولا يَعرفُ للإنارةِ الحديثةِ مَعنىً.

ولأنَّ الحِمْلاوي يَخافُ مِن جابي الكهرَباءِ، ومِن فاتورةِ حسابِها، فقَدْ صوَّرَ للوَلدَيْنِ المستأجِرَيْنِ أنَّ في بناءِ الغُرفةِ مخالفةً قانونيَّةً، وأَنَّها لا حقَّ لها، بالتّالي، بالكهرَباءِ! وكانَ يُرَدِّدُ كُلَّما اعترضَ مِنْهما معترِضٌ:

ـ هَكذا أجَرْتُكما الغُرفةَ، بدونِ كهرَباءٍ.

ـ ولَكِنَّكَ وعَدْتَنا بأَن تَعملَ عَلى إيصالِ خطٍّ واحِدٍ فقَطْ.

ـ إذا دَفعْتُما التّكاليفَ.

ـ نحنُ نَدفعُ التّكاليفَ؟!

ويَنظرُ الولدانِ كلٌّ في وجهِ الآخَرِ نِظرةَ تساؤلٍ وحَيرةٍ.

ـ مِن أَينَ نَدفعُ التّكاليفَ؟ بعضُ القروشِ الّتي تَتجمَّعُ لدَيْنا في النّهارِ تَكادُ لا تَكفي حاجتَنا إلى الطَّعامِ، فكَيفَ يُمكنُنا **التّفريطُ فيها** لإيصالِ الكهرَباءِ؟

ويَسودُ الصّمتُ، فيَشعُرُ الحِمْلاوي العجوزُ أنَّهُ قد أَقنعَ الولدَيْنِ، بَل **أَفحَمَهما**، فسَكَتا.

وما إنْ تَمرُّ هَذه الفِكرةُ في رأسِهِ حتّى يَرتعشَ جَسدُه طَرَباً. فقَد اقتصدَ المالَ وخفّفَ وجعَ الرّأسِ!

وتَختلِطُ ارتعاشةُ النَّشوةِ عِندَهُ **بارْتعاصِ** العضَلاتِ

فرّطَ الشّيءَ وفي الشّيءِ: ضيّعَهُ، بدّدَهُ.

أفحمَهُ: أسكتَهُ بالحُجّةِ.

الارتعاصُ: الانتفاضُ والاهتزازُ والتّلوّي.

المُتْعَبَةِ تحتَ مَرِّ السّنينَ. ويَعودُ العجوزُ إلى شقّتِهِ الرَّطِبَةِ في هَذا البيتِ المُنزوي عِندَ مُنعطَفِ الحيِّ القديمِ في مَنطِقَةِ «حَوضِ الوِلايةِ». ويَأخذُ يُحادِثُ دقائقَ اللّيلِ وثَوانيَ الظّلامِ لعلَّهُ يَتغلَّبُ على **السّأمِ** الّذي **يَغولُ** أيّامَهُ.

ـ اسمَعْ يا حَمّادُ، لَن نَبقى في هَذه الغُرفةِ بعدَ اليومِ. سنُحاوِلُ الِانتقالَ إلى سِواها، فبيوتُ المدينةِ كثيرةٌ.

ـ هذا ما أَحلُمُ به يا كامِلُ، ولَكِنْ مِن أينَ لنا بالمالِ؟ البيوتُ كثيرةٌ حقّاً، ولَكِنّها لَيسَتْ لنا.

ـ وجهُ الحِمْلاوي يُثيرُ فيَّ **الِاشمئزازَ**. لَم أَعُدْ قادراً على تَحمُّلِ بُخلِهِ، إنَّهُ يَبخُلُ علَيْنا حتّى بالكهرَباءِ.

ـ ما تَزالُ غُرفةُ السّطحِ هَذه أفضَلَ بكثيرٍ مِنَ الكوخِ الّذي عِشْنا فيهِ يومَ مجيئِنا إلى المدينةِ.

وكأنَّ ذِكرى الكوخِ قدْ بَعثَتْ في الجوِّ رَهبةً، فسادَ

السَّأَمُ: المَللُ والضَّجرُ.
يَغولُ: يقتلُ ويُهلِكُ.
الِاشمئزازُ: الانقباضُ والنّفورُ كَراهةً.

صَمتٌ مُميتٌ أَلغى وجودَ الحياةِ بَينَ هَذه الجُدرانِ.

وأَخذَتِ الذِّكرى تَجترُّ الأَيّامَ الماضيةَ، **فتَتوالى** الصُّوَرُ: «لَقَدْ أَحرَقوا زَرعي، وقَتلوا قطيعي!..».

ويُدَوّي صُراخُ أبي كاملٍ، فتَضِجُّ له قلوبُ النّاسِ الّذينَ تَجمَّعوا في ساحةِ القريةِ، وفي عيونِهِم قَلَقٌ، وفي وجوهِهِم حَيرةٌ، وفي آذانِهِم أَصداءُ هديرٍ **شَرِسٍ** طالَما مَزّقَ صفاءَ سمائِهِم وهَدْأَةَ حياتِهِم.

ـ لماذا كُتِبَ علَيْنا هَذا الشّقاءُ يا ربُّ؟

ـ لماذا نَتحمَّلُ وَحدَنا هَذه **المآسيَ** كُلَّها؟

ـ لماذا؟؟ لماذا؟؟

والأَصداءُ وَحدَها تُجيبُ. الأَصداءُ وَحدَها تَتردَّدُ في الآذانِ وفي النّفوسِ.

تِلكَ اللَّيلةَ جلسَ أبو كاملٍ القُرْفُصاءَ على حَصيرٍ مِنَ القَشِّ، وجَمعَ حولَهُ العائلةَ: أمَّ كاملٍ، كاملاً الصّبيَّ

تتوالى: تَتتابَعُ.

الشّرِسُ: الغَليظُ الخَشِنُ الطّباعِ، السّيّئُ الخُلقِ، وهنا المقصودُ، المزعِجُ والمخيفُ.

المآسي: مفردُها المأساةُ وهي الفاجعةُ وكلُّ حادثةٍ تُسبّبُ الحزنَ.

الأكبرَ وهو في العاشرةِ، وَهيباً وهو في الثّامنةِ، حَسَنَ وهو في السّادسةِ، وزينةَ ابنةَ الرّابعةِ.

وبَعدَ صمتٍ تَكلَّمَتْ فيه العيونُ القَبِقةُ قالَ أبو كاملٍ:

ـ الغِلالُ احترقَتْ، والحالةُ لا تُطاقُ، والوعودُ كثيرةٌ، ولَكِنّها لا تَكفي لسَدِّ **رَمَقِنا** وعَيشِنا، علَيْنا أَن نَتدبَّرَ الأمرَ يا أمَّ كاملٍ.

ـ ماذا بوُسْعِنا أَن نَفعلَ؟ ألأولادُ ما يَزالونَ صغاراً.

ـ علَيْنا أَن نَترُكَ القريةَ. علَيْنا أَن نُغادِرَ إلى المدينةِ.

ـ ولَكِنْ كَيفَ نَعيشُ في المدينةِ؟! وكَيفَ **نُعيلُ الأَطفالَ**؟!

ـ سأَعملُ أيَّ عملٍ.

ـ وأَينَ نَسكُنُ، ونحنُ لا نَملِكُ مالاً نَستأجرُ به ولو غُرفةً واحدةً؟

ـ سأَقصِدُ إبراهيمَ. إبراهيمُ يَعملُ سِمساراً لتأجيرِ

الرَّمَقُ: بقيّةُ الحياةِ.

أعالَ أطفالَهُ: كفاهُم مَعيشتَهُم.

الأكواخِ في ضاحيةِ المدينةِ، حَيثُ يَسكُنُ معظمُ الهاربينَ مِن غَضبِ الدَّهرِ.

ـ كَلّا يا أَبا كاملٍ! عليْكَ أَن تُفكِّرَ في الأمرِ **برَوِيّة**. ما تَبقّى عِندَنا مِن مَؤونةٍ **يَقينا** الجوعَ. ثُمَّ بإمكانِكَ أَن تَعملَ هُنا في القريةِ، وتَسُدَّ الحاجةَ. المدينةُ ظالمةٌ، وقَدْ نكونُ فيها عُرضةً **للمَهانةِ** والقَهرِ.

و**أَطرقَ** الرَّجلُ طويلاً، وسادَ الصّمتُ مُحدِّداً، حتّى غَفا الأطفالُ كلٌّ في مكانِهِ. فنَهضَتْ أمُّ كاملٍ ومَدَّتِ الأَغطيةَ على هَذه الأَجسامِ الطَّريَّةِ وهِي تَتمزَّقُ نَقمةً.

مَضتْ أيّامٌ وقِصَّةُ الهجومِ على القريةِ الجَنوبيّةِ يَتداولُها النّاسُ فتزيدُ فيهِم القَلقَ. كما في العادةِ بعدَ كلِّ غارةٍ جَوّيَّةٍ، يَتزاحمُ الهاربونَ على أبوابِ بوسْطةِ سَليمٍ، ويَقفِزونَ على نوافذِها، ويَملؤونَ سطحَها،

الرَّويّةُ: النّظرُ والتفكُّرُ في الأمورِ.

يَقينا: يَحمينا.

المهانةُ: الذُّلُّ.

أَطرقَ: نظر إلى الأرضِ ساكتاً لا يتكلَّمُ.

وكلٌّ يَحمِلُ صُرَّةً مِنَ الثّيابِ؛ إنَّها كلُّ ما تَبقّى لدَيْهِ مِن مَتاعِ هَذه الأرضِ، هَذه الأرضِ الّتي امتزجَتْ تُربتُها بعَرَقِ عُمرِهِ ودَمِ حياتِهِ.

العُبوسُ يَسودُ الوجوهَ، إلّا الأولادَ، فإنَّ مُتْعَةَ السَّفرِ وتَعَرُّفِ عالمٍ جديدٍ تَطفَحُ في وجوهِهِم بَسَماتٍ خجولةً، يَعرفونَ كَيفَ يُخفونَها عَنِ الرّجالِ والنّساءِ، وهُم يَشعرونَ بخُطورةِ المَوقِفِ.

ـ أَراكَ وحيداً يا كامِلُ. هَل ستَنزِلُ المدينةَ بدونِ أَهلِكَ؟

ـ نعمْ يا حَمّادُ. لقَدْ قرَّرَ أبي في اللّحظةِ الأخيرةِ أَن يَبقى هُنا.

ـ وأنتَ؟

ـ أَرسلَني أبي إلى العمِّ إبراهيمَ. قالَ إنّهُ سيَتولّى أمرَ سَكَني وتَدبيرَ عملٍ لي.

ويَضحكُ الولدانِ ضِحكةَ الفرحِ الكبيرِ. سيَكونانِ بعدَ ساعاتٍ في المدينةِ!

المَتاعُ: كلُّ ما يُتمتَّعُ به من مُقتنيات الدّنيا ما عدا الفضّةَ والذّهبَ والمالَ.

إنَّها العالَمُ الجديدُ الّذي طالَما حَسَدوا السّائقَ سليماً وبوسْطَتَهُ على خَوضِهِ يوميّاً. كَم تَعَلَّقَتْ عيونُ الأَطفالِ في الدّواليبِ، وتَمنّتْ لو يَكونُ لها مَقعدٌ في جَوفِ هَذا الغولِ الّذي يَبتلِعُ المُسافِرينَ في كلِّ صباحٍ، يَبتلِعُهُم ولا يُعيدُ مِنهُم إلّا القِلَّةَ.

بَعضُهُم يَعودونَ، والآخرونَ لا تَعودُ مِنهُم إلّا أخبارُهُم: هَذا يَعملُ بوّاباً في بنايةٍ فَخْمةٍ، وذاكَ يَحمِلُ السّلَّ في سوقِ الخُضْرةِ، وآخَرُ يَبيعُ العِلكَةَ، وآخرُ نالَ حُظْوةً: فقَدْ عيَّنَهُ «البَيكُ» حاجباً!

ولا يَتوقَّفُ سَيلُ الرّحيلِ، ولا تَتوقَّفُ الأخبارُ. في كلِّ صباحٍ مُهاجِرونَ جُدُدٌ، وفي كلِّ مساءٍ أخبارٌ جديدةٌ.

... وتَتراقصُ أضواءُ القِنديلِ في غُرفةِ السّطحِ، فتَرتسِمُ على الجُدرانِ خَيالاتٌ تَبعَثُ الحرَكةَ مُجدَّداً، فتَنتفِضُ العيونُ المُسَمَّرةُ في الماضي.

- كانَتْ تِلكَ رِحلتَنا الأولى إلى خارجِ الضَّيعةِ. لقَدْ ذُقنا فيها حَلاوةَ السّفَرِ، أَليسَ هَكَذا يا كامِلُ؟

ـ ولَكِنَّها كانَتْ قاسيةً. لَيتَنا بَقينا جُهَلاءَ لا نَعرفُ مِنَ العالَمِ إلّا تِلكَ الحدودَ الضَّيِّقةَ في قَريتِنا: بئرَ الماءِ... المَرجةَ... الخَرّوبةَ... خُمَّ الدّجاجِ... زريبةَ الغَنمِ والماعزِ...

ـ الحقُّ معَكَ يا كامِلُ. لَيتَنا بَقينا هُناكَ! لَيتَنا لَم نَتعرَّفْ بأَكواخِ إبراهيمَ، وغُرفةِ الجِمْلاوي على هَذا السَّطحِ.

ـ أَكواخُ إبراهيمَ! أَكرَهُ أنْ أَتصوَّرَ تِلكَ الأيّامَ. أَتذْكُرُ كَيفَ استقبَلَنا عِندَ وَصولِنا؟

ـ أَذكُرُ كلَّ شيءٍ... كلَّ لَحظةٍ أَمضَيْناها في ذَلكَ المَحمَعِ البَشَريِّ الّذي يُذكِّرُني بزَرائبِ الماعزِ في قريتِنا.

وتَتجمَّدُ الكَلِماتُ على الشِّفاهِ، وتَتسمَّرُ الذّاكرةُ في الماضي: مُنذُ ثَلاثةِ أعوامٍ لمَسَتْ أقدامُنا تُربةَ هَذه المدينةِ. مُنذُ ثَلاثةِ أعوامٍ ونحنُ نَطحنُ غُبارَ الشّوارعِ، نَبيعُ العِلكَةَ، ونَحمِلُ السَّلَّ الكبيرَ في السّوقِ، ونَتقاضى بعضَ القُروشِ لنُشبِعَ بِها البطنَ الفارغَ وجُيوبَ إبراهيمَ

الّتي لا تَشبَعُ. أَذكُرُ صوتَهُ المُدوِّيَ في كلِّ مساءٍ:

ـ يا كامِلُ، لَم تَدفعِ البارحةَ النّيرةَ إيجارَ الغُرفةِ.

ـ لَم أَنسَ يا عمُّ إبراهيمُ. ولَكِنَّ الأسواقَ كانَتْ مُقفَلةً بسَببِ الإضرابِ كما تَعلَمُ. ولَمْ نَتمكَّنْ مِن بَيعِ العِلكةِ وتَحصيلِ ما يَكفينا طعامَ النّهارِ وإيجارَ الغُرفةِ.

ـ ما لي ولِلإضرابِ؟! سأَنتظِرُ إلى الغدِ، فتدفعُ ما تأخرَّ علَيْكُما، وإلّا...

ـ وإلّا فإنَّكَ ستَطرُدُنا؟

ـ حَتماً. فالكثيرونَ غَيرُكُم يَنتظرونَ أَن تَفرَغَ غُرفةٌ، وهُم يَدفعونَ بانتظامٍ.

ـ ولَكِنّنا يا عمُّ إبراهيمُ لَم نَتأخَّرْ عَليْكَ يوماً إلّا عِندَما تَعضُّنا الحاجةُ.

ـ لا أَفهمُ مِثلَ هَذه الحُججِ. علَيْكُما أَن تُضاعفا العملَ لكَي تَحصُلا على المالِ.

والجِدالُ بَينَ الولَدَيْنِ وإبرَاهيمَ **عقيمٌ**. فهو لا يَفهمُ

عَقيمٌ: لا خيرَ فيه ولا مُرتجى.

مِنَ الأمورِ سِوى تَقاضي اللّيرةِ بَدَلَ إيجارِ هَذا الكوخِ المصنوعِ مِنَ التَّنكِ، **الخاملِ** بَينَ أكوامِ الأوساخِ وحُفَرِ الوَحْلِ في إحدى ضَواحي «بيروتَ».

العمُّ إبراهيمُ يَقضي نهارَهُ، في جمعِ بَدَلاتِ الإيجارِ. اللّيرةُ تَكُرُّ وراءَ اللّيرةِ حَتّى يأتيَ المساءُ، فتَتجمَّعُ اللّيراتُ في تِلكَ الشِّقَّةِ الفَخمةِ الرّافهةِ بالنّعيمِ الّتي ابْتَناها لنَفسِهِ. لقَدْ نَسيَ إبراهيمُ القريةَ، نَسيَ أَهلَها المُتبقّينَ هُناكَ. ولَمْ يَنسَ أن يَبتسِمَ لهُم وهو يَستقبلُهُمُ اليومَ بعدَ الآخرِ، ويَستغلُّهُمُ السّاعةَ بعدَ السّاعةِ.

... وأخبارُ إبراهيمَ في الضَّيعةِ لا تَنقطعُ إلّا بعَلاماتِ الإعجابِ والتّقديرِ له ولجُهودِهِ، وللثّروةِ الّتي حصَّنَها في هَذه المدّةِ القصيرةِ مِنَ الزّمانِ!

بدأَتِ الرّعودُ في الخارجِ تُنذِرُ بعاصفةٍ مِنَ المطرِ الشّديدِ، فتَهتزُّ أركانُ غُرفةِ السّطحِ اهتزازاً عنيفاً.

ـ ألا تُريدُ النّومَ يا حمّادُ؟

الخاملُ: الخفيُّ.

ـ أشعُرُ بقُشَعْريرةٍ تَهزُّ جَسدي.

ـ لعلَّكَ عَرَّضْتَ نفسَكَ لبَردِ هَذا النّهارَ؟

ـ لا، ولَكِنَّ هَذه الذِّكرى تَبعثُ فيَّ الألَمَ!

ـ وأيَّةُ ذِكرى؟

ـ إبراهيمُ وهو يطرُدُنا مِنَ الكوخِ.

ـ دَعْكَ مِن أخبارِهِ يا حمّادُ! وحاوِلْ أَن تَنامَ، فلَعلَّكَ تَرى في نومِكَ حُلُماً يُنسيكَ هَذا العالَمَ.

ـ الأحلامُ!... عالَمٌ يُثيرُ الضَّحِكَ! بأيِّ شيءٍ تُريدُ مِنّي أن أَحلُمَ؟ بالمالِ؟ بِالشُّهرةِ؟ بِأَنْ أُصبحَ مِثلَ إبراهيمَ؟ أمْ تُريدُ مِنّي أن أَحلُمَ بامتلاكِ هَذه الغُرفةِ؟

ويَضحَكُ الولدانِ لعلَّهُما يُحاولانِ طردَ هَذه الكآبةِ عَن روحَيْهِما. لماذا انبَعثَتْ صُوَرُ الماضي كلُّها دُفعةً واحدةً في هَذه اللَّيلةِ بالذّاتِ؟

إنَّهُ الطَّقسُ الباردُ، والأمطارُ الّتي أَخذَتْ تَطرُقُ السَّطحَ والنّوافذَ، قدْ حَرَّكَتْ فيهِما هَذه العَودةَ

القُشَعْريرةُ: ارتعادُ الجلدِ وتَقبُّضُه وتَخشُّنُه.
الكآبةُ: الحزنُ الشّديدُ وسوءُ الحالِ والانكسارُ.

إلى الماضي، العَودةَ إلى مِثلِ هذا اليومِ مِنَ الشّتاءِ المنْصرِمِ.

- كَيفَ حالُكَ يا حمّادُ؟ أما تَزالُ مُتعَباً؟

- ما تَزالُ الحُمّى تُلهِبُ جسدي. هَل أَحضرْتَ ليَ الدّواءَ؟

- استدَنْتُ بعضَ المالِ مِن صاحبِ مَطعمِ الفولِ، بعدَما أخبرْتُه بقِصَّةِ مَرضِكَ. وأَحضرْتُ لكَ الدّواءَ والطّعامَ.

- وإيجارُ الكوخِ؟

- سأَطلُبُ إلى العمِّ إبراهيمَ أَنْ يُمهِلَنا حتّى تَعودَ إلَيْكَ عافِيتُكَ.

- أرجو أَنْ يَقبلَ بهَذا.

- سيَرضى... وهَل سيَطرُدُنا وأنتَ على هَذه الحالِ؟

- مَن يَدري؟ إنّهُ لا يَرى في هَذه الدُّنيا إلّا اللّيراتِ.

وقبلَ أَنْ يُنهِيَ حمّادٌ حديثَهُ المُلتهِبَ بحرارةِ المرضِ، كانَ إبراهيمُ يَنتصِبُ عندَ بابِ الكوخِ وعلى

وجهِهِ أَماراتُ الغَضَبِ:

ـ مُنذُ أسبوعٍ لَم تَدفَعا لي قرشاً واحداً! هَذه آخرُ لَيلةٍ: إمّا المالُ، وإمّا الرّحيلُ.

ـ ولَكِنَّكَ تَظلِمُنا يا عمُّ إبراهيمُ! أما تَرى حمّاداً مريضاً لا يَقدِرُ على العملِ؟

ـ لا شأنَ لي في هَذا الأمرِ. يَكفي أنّني استقبَلْتُكم أوّلَ الأمرِ وعرَّفْتُكم بهَذه الحياةِ الجديدةِ. كُنْتُم ستَموتونَ تحتَ لهيبِ القنابلِ في القريةِ.

ـ لَيتَنا مُتْنا هُناكَ ولَم نَتعرّفْ بهَذه الحياةِ!

ـ لا أَفهمُ مثلَ هَذا الأمرِ. علَيْكُما بالدّفعِ غداً. وإلّا طرَدْتُكما عِندَ المساءِ.

كانَتْ كَلِماتُه تُمزِّقُ أسماعَ الصّبيَّيْنِ كالدَّويِّ الّذي مزّقَ سماءَ قريتِهِم قبلَ الهروبِ.

يَطرُدُهُما؟ إلى أَينَ في هَذا الجوِّ البارِدِ؟ لقَدْ شاهدا أولاداً يَنامونَ في جَنَباتِ الشّوارعِ... تحتَ أدراجِ البِناياتِ... في الزّوايا... ولَكنَّ البردَ قاسٍ، وحمّاداً يُلهِبُ المرضُ جِسمَهُ.

ـ أَمْهِلْنا يومَيْنِ حَتّى يُتشفى حمّادٌ فنُعطيَكَ مالَكَ ونَرْحلَ. نَرجو منِكَ هَذا يا عمُّ إبراهيمُ!

ـ لا بأسَ... لا بأسَ. سأنتظِرُ يومَيْنِ. يومَيْنِ فقَطْ.

2

جرَتْ هَذه الحادثةُ مُنذُ سنةٍ، وفي مِثلِ هَذا اليومِ البارِدِ. يَومَذاكَ خرجَ كامِلٌ وحمّادٌ يَحمِلانِ على ظَهرَيهِما ما يَملِكانِ مِن مَتاعِ هَذه الدُّنيا: صُرَّةً مِنَ الثّيابِ العتيقةِ قدْ ضَربَ بها العَفَنُ. خَرجا يَطرُقانِ الأبوابَ القَديمةَ في البِناياتِ المَنْسِيّةِ، لعلَّهُما يَجِدانِ مأوىً جديداً لهُما.

مُنذُ سنةٍ حطَّتْ أقدامُهما على عَتَبةِ بيتِ الحِمْلاوي، واستقَرّا في غُرفةِ السّطحِ هَذه.

اشتدَّتِ العاصفةُ في الخارجِ، وهَدأَتْ ثورةُ النَّفسِ في الدّاخلِ. فكأَنَّ صفحةً جديدةً قدْ بَدأَتْ في حياةِ حمّادٍ وكامِلٍ. سيَرضيانِ بشُروطِ الحِمْلاوي على عِلّاتِها.

حقّاً إنّهُ بخيلٌ. ولكنّهُ مُتسامِحٌ وعَطوفٌ. كثيراً ما سَمعا مِنهُ كَلمةَ: «يا ابنَيَّ لا تُتعِبا نفسَيْكما كثيراً».

وإذا ما تأخّرا عَن دفعِ الإيجارِ لا يَغضبُ. بَل يَقولُ بَينَ المازحِ والحادِّ: «سأنتظِرُ أَن تُسدِّدا لي كلَّ شيءٍ... كلَّ شيءٍ... يومٌ... يومانِ... لا بأسَ. ولَكِنْ عليْكُما أَن تَدفَعا».

وتَمضي أيّامٌ قبلَ أن يَفيَ الولدانِ الأَجرَ، مِن غيرِ أن يَطرُدَهما أو يَرميَهما في ظُلمةِ الشّوارعِ وقساوةِ البردِ.

قالَ حمّادٌ:

ـ الحِمْلاوي أرقُّ مِن ابنِ قريتِنا إبراهيمَ. إنّه بخيلٌ حقّاً، ولَكِنْ ما لَنا وبُخلَهُ؟ أَجِدُ في عَينَيْهِ حنانَ الأبِ، بخاصّةٍ إذا ما أصابَ أَحدَنا مكروهٌ.

ـ صَدَقْتَ... صَدَقْتَ يا حمّادُ. الحياةُ في غُرفةِ الحِمْلاوي أَهْدَأُ مِن حياةِ أكواخِ إبراهيمَ.

مُتسامِحٌ: مُتساهِلٌ.
ما: زائدةٌ ولَيستْ للنّفي.

وكأنَّ هَذه الفِكرةَ قدْ بَعثَتْ في نفسَيْهِما الرّاحة وشيئاً مِنَ الاطمئنانِ، فنَسيا حديثَ أوَّلِ السَّهرةِ معَ الحِمْلاوي، ونَسيا أحداثَ السّنواتِ الثّلاثِ. وعابا تحتَ الأغطيةِ الباردةِ يُبهيانِ يوماً آخرَ مِنَ أيّامِ **البؤسِ**.

كانَتِ الطّريقُ مِنَ الأسواقِ إلى «حَوضِ الوِلايةِ» تَعُجُّ بالنّاسِ. فالحياةُ **تَعْمُرُ** في هَذه النّاحيةِ مِنَ العاصمةِ. وعلى الرَّصيفِ أخذَ كامِلٌ وحمّادٌ يَعرِضانِ أخبارَ النّهارِ.

ـ كانَتِ الغَلّةُ ممتازةً يا كامِلُ. لقَدْ وُفّقْتُ بامرأةٍ ثَريَّةٍ، نَقلْتُ لها بعضَ الأمتعةِ فناولَتْني أجراً مُرتفِعاً.

ـ وأنا أيضاً. لقَدْ بِعتُ أوراقَ اليانصيبِ كلَّها في فَترةِ ما قبلَ الظُّهرِ. وخَدمْتُ **الزُّبُنَ** في المَطعمِ طيلةَ بعدِ الظُّهرِ.

ـ ما رأيُكَ يا كامِلُ لو أعطَيْنا الحِمْلاوي بعضَ

البؤسُ: الشّدّةُ والفقرُ.
تعمُرُ: تمتلئُ بالنّاسِ والحركةِ.
الزُّبُنُ: مفردُها الزّبونُ وهو الّذي يشتري باستمرارٍ مِنَ البائعِ نفسِه.

اللّيراتِ، وطَبْنا إِلَيْهِ أَن يوصِلَ لنا خطَّ الكهرباءِ إلى الغُرفةِ؟ لَم أعُدْ أُطيقُ العَتمةَ وضَوءَ القِنديلِ.

ـ سنُحدِّثُه بالأمرِ. ونَعِدُه بأنْ نُعطيَهُ أكثرَ إذا ما **تَوافرَ** لدَيْنا المالُ فيما بَعدُ.

لَم يَطُلِ الحديثُ؛ فالمسافةُ لَيسَتْ طويلةً، ومُشاهدَةُ النّاسِ في حركتِهِم تُقرِّبُ الأبعادَ.

ـ مساءُ الخيرِ يا عمُّ. كَيفَ حالُكَ اليومَ؟

ويَتقطَّعُ صوتُ الحِمْلاوي معَ سُعالِهِ:

ـ بخَيرٍ والحمدُ للهِ. بخَيرٍ.

ـ لنا معَكَ حديثٌ . نَرجو أن تسمَعَنا جيِّداً.

ـ ولكُمْ عِندي مفاجأةٌ سارَّةٌ.

ـ مفاجأةٌ سارَّةٌ؟! وما هِيَ؟

ـ تَبدَأانِ بالحديثِ أوّلاً.

قالَ كامِلٌ:

ـ سنُعطيكَ بعضَ اللّيراتِ الّتي كَسِبْناها هَذا النّهارَ،

توافرَ: تكاثرَ وزادَ.

مُقابلَ أَن توصِلَ الكهرباءَ للغُرفةِ.

وضَحكَ الحِمْلاوي ضِحكةَ الفرحِ وقالَ:

ـ لا أُريدُ يا كامِلُ! الكهرَباءُ قدْ وَصلَتْ إلى الغُرفةِ. ولَن تَدفَعا قرشاً واحداً مُقابلَ هَذا.

مُنذُ السّاعةِ تبدَّلَ الوجودُ كلُّه في حياةِ كامِلٍ وحمّادٍ! النّيراتُ كثيرةٌ! الغُرفةُ مَسكَنٌ لائقٌ! لعلَّ الأحلامَ أَخذَتْ لها مَنفَذاً إلى المُخيِّلةِ الجافّةِ.

وسَقطَتْ على يدِ الحِمْلاوي قُبلتانِ لَم يَعرِفْهُما مُنذُ زمنٍ بعيدٍ، فانعَكسَتا على وَجهِهِ دَمعتَيْ فرحٍ، وفي قلبِهِ **تأوُّهاتٌ** متواصِلةٌ.

قالَ كامِلٌ:

ـ سَنتعشّى معاً هَذه اللّيلةَ! سنَحتفِلُ بهَذه المفاجأةِ السّارّةِ.

ورَكضَ الصّبيُّ إلى الشّارعِ، وغابَ بعضَ الوقتِ، ثمَّ عادَ حاملاً الفولَ والحِمّصَ وشيئاً مِنَ الحَلوى.

التأوُّهاتُ: التنهُّداتُ.

ـ هَل نَسيتَ المُرطِّباتِ لِلحِمْلاوي يا كامِلُ؟
ـ لا! لَم أَنسَ. بَل جِئتُه بالفُستُقِ أَيضاً.

وكانَ الاحتفالُ المُتواضِعُ هَذا خُطوةً جديدةً نَحوَ عَتَبةِ المُستقبَلِ، إذْ ما لَبِثَتِ المُفاجآتُ أنْ تَكرَّرتْ!

... ففي إحدى اللَّيالي فاجأَ الحِمْلاوي الصَّبيَّيْنِ بقَولِهِ: «لَن أتقاضى مِنكُما بعدَ اليومِ إيجارَ الغُرفةِ. أنتُما ولدانِ فقيرانِ. يَجبُ أن تُحسِّنا أحوالَكُما. وأنا على عَتَبةِ النّهايةِ. ما لَدَيَّ مِنَ المالِ يَكفي عَيشي. أُريدُ لَكُما أن لا تَترُكا هَذه الغُرفةَ أبداً».

... غمّةُ النّهارِ أخذَتْ تَزدادُ يوماً بعدَ يومٍ. وتَكرَّرتْ زياراتُ الحِمْلاوي اللّيليّةُ لهُما، فاطْمَأنّا إلَيْهِ، ووَثِقَ بِهِما. وكانَتْ نَوادرُه المُضحِكةُ **تُفيضُ** على الجوِّ مرحاً و**حُبوراً**، وتُبدِّلُ مِن جفافِ شَيخوختِهِ وقساوةِ فَقرِهِما.

وذاتَ لَيلةٍ **أَطبقَ المرضُ على** صدرِ الحِمْلاوي

تُفيضُ: تَسكُبُ.
الحُبورُ: السّرورُ والبَهجةُ.
أَطبقَ المَرضُ عليْهِ: دامَ ليلاً ونهاراً.

بِكِلْتا يَدَيْهِ؛ وكانَ، مُذْ حينٍ، تارةً يَقرُصُ رئتَيْهِ قَرصةً، وطَوراً يَنهَشُ قلبَهُ نَهشةً، وغالباً يَقطعُ عنْهِ أنفاسَهُ ليَعودَ فيَرُدَّها إلَيْهِ بعدَ أنْ يَتصبَّبَ منهُ العَرَقُ حتّى في أيّامِ البردِ القارسِ.

ولمّا أقبلَ الصّبيّانِ مساءً إلى غُرفَةِ الحِمْلاوي يَزورانِهِ ويَطمئنّانِ إلى أحوالِه، نَظرَ نظْراتٍ تائهةً، وراحَ يَضحَكُ حيناً، ويَعبِسُ حيناً، كأنَّ قَسَماتِ وجهِهِ تَتبدَّلُ كما تَتبدَّلُ صَفَحاتُ أيّامِهِ. وأخذَ يَتكلَّمُ... وراحَ لسانُه يَغورُ بَينَ الكَلماتِ... وإذا بثَرثرتِهِ تَتحوَّلُ إلى قصّةٍ غريبةٍ لَم يَسمَعْ بها الصّبيّانِ مِن قَبلُ، ولَم يَجْهَدا نَفسَيْهِما يوماً بالسّؤالِ عَنها.

- كُنتُ في عُمرِكُما يومَ هجَرْتُ ضَيعتي الجبليّةَ. ذُقتُ مرارةَ العَيشِ والحِرمانِ. آهِ ما أشقى تِلكَ الأيّامَ! أنكرَني أهلي لأنّي تَركْتُ القَريةَ. أنا وحيدٌ الآنَ... أنا وحيدٌ... لَم يَعرِفْ أحدٌ مِن أهلي أينَ أسكُنُ... كَيفَ أعيشُ... أنا وحيدٌ... لقَدْ ماتوا جميعاً... أنتُما... أنتُما...

يغورُ: يَدخُلُ.

في صباحِ اليومِ التّالي كانَتْ رائحةُ الرّبيعِ تَنبعِثُ مِن شجَرةٍ بَرِّيَّةٍ يَتيمةٍ في هَذه البُقعةِ المرصوصةِ بالبيوتِ والحجارةِ، فتَتعطَّرُ أنفاسُ الصّباحِ المُبكّرِ إلى النّهوضِ.

كامِلٌ وحمّادٌ لَم يَنهَضا نشيطَيْنِ هَدا الصّباحَ، على غيرِ عادَتِهِما: فقَدْ أَقلقَهُما حديثُ الحِمْلاوي طولَ اللَّيلِ، فسَهِدا وهُما يُراجعانِ كَلِماتِه: «أنا وحيدٌ... أَنتُما... أنتُما...».

... أَجَلْ. وهُما وحيدانِ! لهُما أهلٌ، ولَكِنْ مُنذُ ثلاثِ سنواتٍ لا يَعرفانِ عَنهُم إلّا القليلَ. كُلَّما لاقَيا غريباً آخَرَ قادماً إلى المدينةِ سألاهُ عَنِ القريةِ... عَنِ الأرضِ... عَنِ النّاسِ.

لا شيءَ جديداً. قَوافِلُ تَتدفَّقُ إلى المدينةِ، إلى أكواخِ التَّنكِ، أكواخِ إبراهيمَ، إلى **الأَزِقَّةِ** والزَّوايا. والمدينةُ تَبتلِعُهم، **وتُخْمِدُ** في نفوسِهِم النَّقمةَ. يَركضونَ وراءَ

سهِدا سهرا على رُغمهما، لم يتمكّنا من النّوم.
الأزِقّة مفردُها الزُّقاقُ وهو الطّريقُ الضّيّقُ.
تخمدُ تُطفِئُ.

الّيراتِ يَتَلهَّونَ بها، يَسكُتونَ، يَضيعونَ وراءَ الصَّمتِ.
غرباءُ!.. غُرباءُ!..

والحِمْلاوي كانَ أَحدَ هؤلاءِ الغُرباءِ الّذينَ غيَّبَتْهُمُ المدينةُ وراءَ سِتارِ النِّسيانِ مُنذُ زمنٍ بعيدٍ.

في ذلكَ المساءِ لَم يُشاهِدا الحِمْلاوي بانتظارِهِما عِندَ العَتَبةِ الخارجيَّةِ. لقَدِ اعتادا رؤيَتَهُ مُنذُ مدَّةٍ وهو يَقبَعُ هُنا وعَصاهُ بَينَ يَدَيْهِ، يُثرثِرُ، يُحدِّثُ نفسَهُ، يَترنَّمُ بأُنشودةٍ.

قالَ كامِلٌ:

ـ علَيْنا أَن نَمُرَّ به، نَسألَهُ عَن صِحَّتِهِ ونَدعُوَهُ إلى مشارَكتِنا في العَشاءِ.

بالتّأكيدِ. بالتّأكيدِ.

وكانَ الأنينُ المُتقطِّعُ يُجاوِبُ طَرَقاتِ البابِ الخفيفةِ.

ـ هَل جِئتُما؟ لقَدِ انتظَرْتُكما كلَّ هَذا النّهارِ.

قبعَ في المكانِ: انزوى وتَوارى.

ـ ما بالُكَ يا عمُّ؟ كَيفَ صحَّتُكَ؟

ـ أشعرُ بالألمِ في صَدري... الألمُ يُمزِّقُ رئتَيَّ. ويَقطعُ السُّعالُ أنفاسَهُ مجدَّداً.

ـ اهدَأْ. اهدَأْ. نُحضِرُ لكَ الدَّواءَ؟ نُهيِّئُ الطَّعامَ؟ اطلُبْ، ماذا تُريدُ أن نُحضِرَ لكَ؟

ويُشيرُ العجوزُ إلى الطّاولةِ حَيثُ تَتجمَّعُ عُلبُ الدَّواءِ المُختلِفةُ الأنواعِ.

ـ هَذه العُلبةُ الخضراءُ. إنّها دواءُ السُّعالِ.

مُنذُ تلكَ اللَّيلةِ راحَ كامِلٌ وحمّادٌ **يتناوبانِ** على خِدمةِ الحِمْلاوي، فقَدِ ازدادَتْ وطأةُ الدّاءِ عليْهِ، وأَخذَتْ صحَّتُه في التَّدهْوُرِ.

ـ الحِمْلاوي صورةٌ لوالدي يا حمّادُ. والدي الّذي غيَّبَني عَنهُ الفِراقُ مُنذُ أكثرَ مِن ثلاثِ سنواتٍ. عاطفتي تَنصبُّ كلُّها على خِدمةِ هَذا الرَّجلِ الغريبِ. لَن أترُكَهُ في ألَمِهِ وحيداً.

يتناوبانِ: يَتداولانِ على الأمرِ فيفعَلُه هذا مرّةً وهذا مَرّةً.

ـ ولَكِنْ ما لدَيْنا مِنَ المالِ آخذٌ بالشّحّ.

ـ لا بأسَ عيَنْنا. أيّامٌ قليلةٌ وتَعودُ إلَيْهِ صحّتُه، فنُضاعفُ العملَ ونَسدُّ حاجتَنا.

غَيرَ أنَّ المرضَ قَد ضَربَ في جسمِ الحِمْلاوي ضربتَهُ القاضيةَ، وأقعدَهُ العجْزُ حَتّى عَنِ الحركةِ الخفيفةِ. ومعَ هٰذا كانَ الصَّبيّانِ لا يَترُكانِهِ: كلٌّ واحدٍ بدَورِهِ يُلبّي حاجاتِ العجوزِ **المُتأكّلِ** بَينَ الأغطيةِ الباليةِ.

مضى عىٰ هٰذه الحالِ أكثرُ مِن شهرٍ. وذاتَ مساءٍ أحسَّ الصَّبيّانِ أنَّ الحِمْلاوي قدْ عَجزَ حَتّى عَنِ الكلامِ، فشَعَرا أنَّ حدَثاً غريباً **سيَطْرَأُ** عىٰ المِسكينِ. هو صامتٌ مُنذُ يومَيْنِ، لا يَتناولُ طعامَهُ، ولا يَتحرَّكُ حَتّى في فراشِهِ.

وفجأةً سَمِعا صوتاً مُبهَماً يَصدُرُ مِن صدرِهِ، فتَنقُلُه

الشّحّ: النّقص.
المُتأكّل: الّذي يأكُلُ بعضُه بعضاً.
سيَطْرأ: سيَحدُث.

حركاتُ عَينَيْهِ اللّتَيْنِ تَجولانِ في وجهَيْهِما وفي أنحاءِ الغُرفةِ. وحاولَ أَن يَسحبَ يدَهُ، وبصُعوبةٍ بالغةٍ رَفعَها فوقَ اللِّحافِ، وأشارَ إلى الخِزانةِ العتيقةِ الّتي طالَما حدَّثَهُما عَنها أثناءَ مرضِهِ بقولِهِ:

- إنَّ في هَذه الخِزانةِ سرّاً علَيْكُما اكتشافُه بنفسَيْكُما... إنَّ فيها سرّاً سيُفرِحُ قَبيْكُما.

لَم يَكُنْ هَذا الكلامُ يُثيرُ اهتمامَهُما قبلَ هَذه اللّحظةِ. أمّا الآنَ فإنَّ عَينَي الحِمْلاوي تَتسمّرانِ في الخِزانةِ كأنَّهُما تَدفعانِ بهِما إلى فَتحِها.

سألَ حمّادٌ:

- هَل في الخِزانةِ شيءٌ تُريدُه يا عمُّ؟

وأشار الحِمْلاوي برفَّةِ جَفنِهِ أن نعمْ. فنَهضَ حمّادٌ وعالجَ بابَها حَتّى فتحَهُ، مُحدِثاً أزيزاً جَرحَ رَهبةَ الصَّمتِ. وراحَتْ يَداهُ تَرفعانِ بعضَ الثّيابِ وبعضَ العُلَبِ. وكُلَّما أَمسكَ شيئاً نَظرَ إلى الحِمْلاوي ليَرى

الأزيزُ: الصَّوتُ المُرعِجُ



الِانطباعَ على وجهِهِ وفي عَينَيْهِ. ولمّا أَمسكَ عُلبةَ الحَلويات الّتي كانَ يُحبُّها الحِمْلاوي لاحظَ على وجهِهِ بعضَ الرّاحةِ والرِّضى. لعلّها السِّرُّ الّذي طالَما حدَّثَهُما عَنهُ!

ولَكِنَّ إشراقةَ القَبولِ والرِّضى على الوجهِ المُتجعِّدِ قدْ تحوَّلَتْ فجأةً إلى صمتٍ رهيبٍ: فجَمَدَتِ العَينانِ، وانقطَعَتِ الأنفاسُ حَتّى خَمَدَتْ.

كانَ هَذا المَوقِفُ الغريبُ على الصَّبيَّينِ صدمةً أصابَتْهُما بالذُّهولِ. ولَكِنَّ العُلبةَ ـ السِّرَّ قدْ أنقذَتِ المَوقِفَ.

ورَقتانِ، وصُرَّةٌ مليئةٌ بِالمالِ. في الورقةِ الأولى كَلِماتٌ كُتِبَتْ بخطٍّ مُبهَمٍ لعَنَّهُ خطُّ الحِمْلاوي نفسِهِ: «تَتولَّيانِ دَفني بِهَذا المالِ».

وفي الورقةِ الثّانيةِ أَختامٌ رسميَّة، ووَصيَّةٌ: إنَّها المفاجأةُ الّتي تَحدَّثَ عَنْها الحِمْلاوي! إنَّهُ السِّرُّ المخبَّأُ في الخِزانةِ:

«أوصي بِهَذا البيتِ، وبِكُلِّ ما فيه، لِلْولدَينِ حمّادٍ وكاملٍ».

بَينَ دُموعِ الحَسرةِ على الحِمْلاوي، ودُموعِ الفرحِ بهَذه المفاجأَةِ، مرَّ في ذِهنِ كاملٍ شريطُ الماضي كلِّهِ: القريةِ... هديرِ السَّماءِ الغاضبِ... البوسطةِ... المدينةِ... أكواخِ العمِّ إبراهيمَ... فقالَ مُتمْتِماً:

ـ هَل انتهَتْ غُربتُنا يا حمّادُ؟

فأجابَهُ حمّادٌ، وكأنَّهُ انتفَضَ مِن غيبوبةٍ:

ـ أَرجو هَذا! أَرجو أَن يَتحقَّقَ لنا حُلمُ الطُّفولةِ الهاربُ مُنذُ سنواتٍ!

قصة

المُغامرةُ الصّغيرةُ

كانَتِ الضّاحيةُ العربيّةُ لمدينةِ «مَنْدوزَ» الجبيَّةِ في حركةٍ ونشاطٍ عى عادتِها في كلِّ صباحٍ. فالنّاسُ قدِ اعتادوا النُّهوضَ باكراً إلى أعمالِهِم الزِّراعيَّةِ، إذْ تُباكِرُهُم سيّاراتُ النَّقلِ الّتي تَحمِلُ الخُضَرَ مِن هَذه المزارِعِ المُنتشِرَةِ في الضّواحي، وتَنقُلُها إلى مَحطّاتِ السِّككِ الحديدِ، ومِنها تُنقَلُ إلى أسواقِ المدينةِ.

وهَذه الحركةُ المُستمِرَّةُ لم تَعُدْ تُثيرُ اهتمامَ السُّكّانِ الّذين أَلِفوها، فباتوا لا يَجدونَ فيها جديداً. بَل لا يَجِدونَ مُتَّسَعاً مِنَ الوقتِ لتَبديلِ هَذا **النَّمَطِ** مِن حياتِهِم

النّمطُ: الطّريقةُ.

اليوميّةِ، بخاصّةٍ مَتى أعطَتْهُمُ السّماءُ فُرصةً طَويةً لكَي يَعمَلوا في الأرضِ ويَستغِلّوا خَيراتِها.

وكانَ جوبيرُ بَين أولئكَ الرّجالِ الّذينَ اندفَعوا إلى العملِ في هَذا الصّباحِ. غَيرَ أنَّ طريقَهُ لَم تَكُنْ باحيةَ المَزارعِ، بَل نَحوَ الغابةِ حَيثُ يَعملُ في قَطعِ الأشجارِ المُعَدَّةِ للتَّصيعِ.

مُنذُ سنواتٍ ابتَنى بيتاً عِندَ طَرَفِ الغابةِ الكُبرى، بَعدَما انفصلَ عَن أهيهِ، لكَي يَكونَ قريباً مِن عملِهِ. ثُمَّ تزوَّجَ ابةَ عمِّهِ إيلينَ، وكانَتِ الطِّفلةُ روزي الثَّمرةَ الأولى لهَذا الزَّواجِ.

روزي!... روزي!

هاتِفٌ يَملأُ قلبَهُ حبوراً، فيَندفعُ في تِلكَ الطُّرُقاتِ المُتعرِّجةِ نَحوَ الغاباتِ وعَيناهُ تُسابقانِ الشّمسَ. روزي طِفلةُ السّابعةِ مِنَ العُمرِ. تَفتَّحتْ عَيناها على الحياةِ بَعدَ مُرورِ سنواتٍ مِن زَواجِ جوبيرَ عاشَ خلالَها مَرارةَ

الهاتِفُ: المُنادي.

الشَّوقِ إلى أطفالٍ يَمؤونَ جوانبَ البيتِ ويَضِجّونَ معَ أطيارِ الحديقةِ.

وجاءَتْ روزي فانطفأَ الشَّوقُ واشتعلَتْ نارُ الحنانِ، واندفعَتْ في عينَيِ الوالدَيْنِ دموعَ فرحٍ، وفي قلبَيْهِما حبّاً مُلتهِباً.

إيبينُ تُكرِّسُ لها نهارَها كلَّهُ. مُنذُ الصّباحِ الباكرِ، قَبلَ أن تَنهَضَ الطِّفلةُ مِنَ الفِراشِ، يَكونُ كوبُ الحليبِ السّاخنِ بانتظارِها عِندَ السّريرِ.

- استيقِظي يا حَبيبتي!.. استيقِظي يا سَعادتي!

وتَتراقصُ أجفانُ الطِّفلةِ على أنغامِ صوتِ الأُمِّ وكأنَّها معزوفةُ الحياةِ تَتجدَّدُ معَ مَطلَعِ كلِّ نهارٍ.

- صباحُ الخَيرِ يا أمّي!

- صباحُ الخَيرِ يا حَبيبتي!

وتَتبادلُ النَّظَراتُ **وَمَضَاتِ** السّعادةِ. وقَبلَ أن يُغريَ النُّعاسُ الكَسولُ عَينَيِ الطِّفلةِ بغَفوةٍ قصيرةٍ قَبلَ

الوَمَضاتُ: اللّمَعاتُ.

النُّهوضِ، تَسمعُ صوتَ أبيها يُنادي:

ـ أُريدُ أنْ أُقبِّلَ حدّيْكِ قَبلَ الرَّحيلِ يا روزي!

وتَقفِزُ مِنَ الفِراشِ. تَقفِزُ إلى حُضنِ أمِّها، فتَدفعُها هَذه إلى حُضنِ الأبِ.

ـ أَينَ تُريدُ تَقبيلي؟ هُنا أمْ هُنا؟

ويَعلو الضَّحِكُ.

ـ بَل هُنا وهُنا! أُريدُ أن أتزوَّدَ بتُفّاحتَيْنِ، واحدةٍ لطعامِ الفَطورِ، وواحدةٍ لِلغَداءِ.

وتَختلِطُ الضِّحْكاتُ، ويَعلو صوتُ إيبينَ:

ـ دَعْكُما الآنَ مِنَ اللَّعِبِ! لدَيْكُما مِنَ الوقتِ في المساءِ ما يَكفيكُما.

ـ ولِمَ العَجَلةُ يا إيبينُ؟! لَم يَحِنْ وقتُ ذَهابي إلى الغابةِ.

ـ ستَتأخَّرُ روزي عَن سيّارةِ المدرسةِ.

ـ هَذا حقٌّ.

ويَتظاهرُ الأبُ بالعُبوسِ وهو يوصي الطِّفلةَ بحزمٍ وجِدّيّةٍ:

ـ لا تُعذّبي المعلّمةَ يا روزي، أنتِ طِفلةٌ عاقلةٌ. أليسَ هَكَذا؟

ويَترنَّمُ صوتُها بضِحكةٍ صغيرةٍ:

ـ نعمْ يا أبي. لَن أُعذّبَها، سأَعمَلُ بوَصيَّتِكَ.

ويَتركُ حوبيرُ سُلَّمَ البيتِ وعلى كَتِفِهِ الفأسُ الحادَّةُ والحبلُ الّيفيُّ، وهو يُصعِّدُ بَينَ شفتَيْهِ نَغَمَ أُنشودةٍ تَعلَّمَها في طفولتِهِ، وقَدْ علّمَها لطِفلتِهِ. وتُدرِكُ المرأةُ والطِّفلةُ أنَّ الرَّجلَ قدْ توارى وراءَ الأشجارِ عندَما تَغيبُ عَن مَسْمَعَيْهِما أنغامُ تلكَ الأُنشودةِ المَرِحةِ.

وتَنشَطُ الحركةُ في البيتِ.

ـ روزي، هَل أكملْتِ الفَطورَ؟

ـ نعمْ يا أمّي.

ـ روزي، لا تَنسَيْ مَحفظَةَ كُتبِكِ. قدْ حانَ وقتُ الذَّهابِ إلى المدرسةِ.

ويَزعَقُ «الزّمّورُ» عِندَ المَدخلِ، فتَقفِزُ روزي إلى

توارى: اختفى.
يزعَقُ: يصيحُ.

عُنقِ إيلينَ تُقبِّلُها، ثمّ تَنحدِرُ ناحيةَ الدَّرَجِ وهِي تَكادُ تَتعثَّرُ مِن ثِقَلِ مَحفظةِ الكُتبِ. وقبلَ أن تَصعَدَ إلى بابِ السّيّارةِ الكبيرةِ تأخذُ يدُها تُلوِّحُ مودّعةً أمّها المُنتصِبةَ عِندَ البوّابةِ.

ـ رافقَتْكِ السّلامةُ يا حَبيبتي.

وتُتمتِمُ بالدُّعاءِ، وتَقْفِلُ عائدةً إلى المطبخِ استعداداً لطعامٍ شهِيٍّ تُفرِحُ به قلبَ روزي ويَملأُ جوفَ الزَّوجِ المُتْعَبِ عِندَ المساءِ.

لَم يَكَدْ جوبيرُ يَنعطفُ نَحوَ الغابةِ في ذَلكَ الصّباحِ الرّبيعيِّ حَتّى أَحسَّ بشَوقٍ إلى الطِّفلةِ. فجَمَدَ في مكانِهِ كأنّهُ يُريدُ العَودةَ. ولَكِنَّ روزي في طريقِها إلى المدرسةِ... لَن يَجدَها في البيتِ.

ومرّتْ سحابةُ قَلَقٍ على نفسِهِ فانعكَسَتِ ارتجافةً قصيرةً على كلِّ جسمِهِ، وكادَتْ تُجمِّدُ الحركةَ في عَينَيْهِ. فأَخذَ يُحدِّثُ نفسَهُ:

تقفلُ: ترجعُ.

ـ هَل قبَّلْتُها هَذا الصّباحَ؟ نعمْ... قبَّلْتُها. ولِمَ هَذا القَلقُ يا إلَهي؟... كانَتْ ضاحكةً... ملأَتْ قلبي سعادةً! ما بالُ هَذه الفِكَرِ تُقلِقُني؟ بَلى، لقَدْ رأيْتُها فَرِحةً وهِي تُحيطُ عُنقي بيدَيْها الصّغيرتَيْنِ.

واستعادَ نَفَسَهُ لمّا تَراءَتْ له هَذه الصّورةُ. فأَخذَ يَضحكُ... ويَضحكُ عالياً. ثُمَّ هَتفَ:

«كَم أنا غَبيٌّ!... كَم أنا غَبيٌّ!... لماذا هَذا القَلقُ كُلُّه!؟». واندفعَ مُجدِّداً في طريقِ الغابةِ وهو يُلوِّحُ بطَرَفِ الحبلِ، كأنَّهُ يَخبِطُ الهَواءَ بعصبيَّةٍ تَتحوَّلُ قليلاً قليلاً إلى إيقاعاتٍ موسيقيَّةٍ تُرافقُ شفتَيْهِ، وهو يَستعيدُ مُجدَّداً أُنشودتَهُ المفَضَّلةَ.

مضَتْ عليْهِ ساعتانِ وهو يَضرِبُ الجذوعَ الضَّخمةَ الضَّربةَ تِلْوَ الأُخرى؛ فتَهوي الشَّجَرةُ هناكَ، ويُسمَعُ لأَغصانِها طَقْطقاتٌ وتَكسُّراتٌ وهِي تَرتمي برؤوسِها عِندَ أقدامِ شجراتٍ أُخرى.

ويُهوي بالفأسِ مُجدَّداً على الأَغصانِ، فيَنزِعُها عَن

أهوى على: أَسقطَ يدَهُ وانقضَّ.

أُمِّها ثُمَّ يُعَرّيها. ثُمَّ يَجمعُ الحطبَ أحجاماً أحجاماً ويَصُفُّها كُوَماً كوَماً.

هَذا **دَأْبُه** في كلِّ يومٍ. حَتّى إذا ما تَجمَّعَتْ لدَيْهِ الأكوامُ جاءَتْهُ سَيّارةُ الشَّحنِ الكبيرةُ لتَنقُلَ الأحشابَ إلى مصانعِ المدينةِ.

كانَ العملُ في الغابةِ **مُضنياً**. ولَكِنَّ جوبيرَ قدِ اعتادَ حياةَ الغابةِ مُنذُ طُفولتِهِ، فألِفَتْ نَفسُه الطّبيعةَ القاسيةَ، حَتّى تَحوَّلَ عملُه إلى مُتعةٍ يوميّةٍ يُجدِّدُ فيها نشاطَهُ ويُقوّي ثِقتَهُ بنَفسِهِ. فما زالَ قادراً على تحطيمِ كلِّ جِذعٍ يَصلُحُ للقَطعِ مَهْما يَكُنْ ضَخماً وعنيداً.

وتَزدادُ سعادتُه بعَمِلهِ كُلَّما مَرَّ ببالِهِ لقاءُ المساءِ. إيلينُ، الزّوجةُ الحبيبةُ، تَنتظرُه بعَينَيْنِ **طافحتَيْنِ** بالحنانِ. وروزي، الطِّفلةُ المَرِحةُ، هِيَ **جُلُّ** سعادتِهِ، تَقفزُ حولَهُ وتَقطعُ عليْهِ طريقَهُ تُريدُ قُبلةً. وتَعلو مِن ثَمَّ ضِحكةٌ

الدّأبُ: العادةُ.

مُضنياً: مُثقلاً مُرهقاً.

طافحتَيْن: مملوءتَيْن.

جُلُّ الشّيءِ: مُعظمُه وأكثرُه

واحدةٌ تَخرجُ مِن قلوبِ الثّلاثةِ! إنّها ضِحكةُ الحياةِ الهانئةِ.

«لماذا كلُّ هَذه الصُّورِ تَعْبُرُ مُخيّلتي في هَذا النّهارِ بالذّاتِ؟».

سألَ جوبيرُ نفسَهُ بصوتٍ خافتٍ كادَتْ نَبَراتُه تَتوقَّفُ عِندَ شفتَيْهِ. وعاوَدَتْهُ ارتعاشةُ الصّباحِ، وتَمثَّلَتْ أمامَهُ روزي!

إنَّها في المدرسةِ الآنَ. لَم يَحِنْ بَعدُ وقتُ عَودتِها إلى البيتِ. لا شكَّ أنّها تَسرحُ وتَمرحُ معَ رفيقاتِها. إنَّها تُوزِّعُ الفرحَ على الجميعِ كما تَفعلُ في البيتِ، لا شَكَّ في هَذا... يا لَها مِن طِفلةٍ رائعةٍ! كلَّ يومٍ تَظهرُ علَيْها مَلامحُ النّباهةِ والفِطنةِ.

- روزي! كَم أنا سعيدٌ بكِ يا طِفلتي الحَبيبةَ!

وسَمعَ إيقاعَ صوتِهِ يَختلِطُ بأجواءِ الغاباتِ القويّةِ. فتَنبَّه لِنفسِهِ مُجدَّداً، واسترسلَ في ضِحكةٍ مُدوِّيةٍ قَطعَتْ علَيْهِ فِكرَهُ وعملَهُ.

كانَ كلُّ شيءٍ هادئاً عِندَما أَطلَّ جوبيرُ على بيتِهِ مِن

بعيدٍ؛ فشمسُ المساءِ المُتْعَبَةُ مِن طولِ نهارِها الرّبيعيِّ، بَدَتْ شاحبةً وهِي تُودِّع تِلكَ المَزارعَ على أنغامِ أناشيدَ متنوّعةٍ تَختلِطُ فيها سعادةُ الطّبيعةِ بسعادةِ الإنسانِ.

ـ مساءُ الخَيرِ يا روجيه.

ـ مساءُ الخَيرِ يا حوبيرُ. كَيفَ حالُ العاباتِ؟

ـ الحمدُ للهِ. وأنتَ، كَيفَ حالُ المَزرعةِ؟

ـ نَشكُرُ اللهَ على نِعمتِهِ... خَيرٌ وبَرَكةٌ.

ـ أَينَ سنَلتقي اللّيلةَ؟ أَتُريدُ تَمضيةَ السَّهرةِ بلُعبةِ ورقٍ؟

ـ حَتماً. حَتماً.

ويَبتسمُ الرَّجلانِ وهُما يَتواعدانِ لسَهرةٍ حافلةٍ بالتَّسليةِ معَ بعضِ رجالِ المَزرعةِ القريبةِ.

عِندَ بوّابةِ الحديقةِ الخارجيّةِ كانَ جوبي، الكلبُ الأمينُ، يَقفِزُ هُنا وهُناكَ مُرحِّباً بصاحبِهِ حوبيرَ. ويَمُدُّ الرَّجلُ يدَهُ إلى رفيقِهِ الحيوانِ ويُداعِبُ شعرَ رأسِهِ.

شاحبةٌ: متغيّرةُ اللّونِ هزالاً أو مرضاً أو تعباً.

ـ أينَ روزي يا جوبي؟ لماذا تَنتظِرُني وحيداً عِندَ البَوّابةِ؟

نَبحَ الكلبُ نُباحاً مُتقطِّعاً تحوَّلَ إلى **هَريرٍ**. ثُمَّ قَفزَ خارجَ البوّابةِ بعيداً عَن أنظارِ جوبير، ولكِنَّ صاحبَهُ لَم يَهتَمَّ بهَذه الحركاتِ الغريبةِ.

وقَبلَ أَن يَخطُوَ الرَّجلُ على الدَّرجِ، أطلَّتْ إيلينُ مِنَ البابِ وهِيَ باسمةٌ على عادَتِها. فقَدْ نبَّهَها نُباحُ الكلبِ، على قُدومِ زوجِها، فخَرجَتْ مُرحِّبةً:

ـ أهلاً بكَ يا جوبيرُ. أعطاكَ اللهُ العافيةَ!

ـ وبكِ يا حَبيبتي! أينَ روزي؟ لَم أرَها في استقبالي.

ـ لعلَّها في الحديقةِ. خَرجَتْ مُنذُ ساعةٍ تَلعبُ معَ جوبي.

وانتفضَ جوبيرُ انتفاضةً غريبةً. وفجأةً تمثَّلَتْ أمامَهُ **هواجسُ** هَذا النّهارِ كلُّها!...

الهريرُ: صوتُ الكلبِ من دونِ نُباحٍ.
الهواجسُ: الفكرُ الّتي لا تفارقُ الرّأسَ، وتُستعملُ عادةً للفكرِ المُقلقةِ.

خَرجَتْ تَتعبُ معَ جوبي؟! ولَكِنْ أَينَ هو الكلبُ الأمينُ، رفيقُها الدّائمُ والّذي لا يُفارقُها؟ لقَدْ قَفزَ خارجَ الحديقةِ وتَوارى عَنِ الأنظارِ!

لَم يَقدِرِ الرَّجلُ أَن يَجمعَ هَده الفِكَرَ كُلَّها دُفعةً واحدةً، وتَملَّكَهُ الصّياحُ، فراحَ يُنادي: «روزي!... روزي!... أَينَ أنتِ»؟

وكأنَّ عاصفةً قدْ هَبَّتْ فجأةً على البَيتِ الهادئِ، فانطلقَ جوبيرُ يَصرُخُ مُتابعاً: «أَينَ روزي؟ أينَ روزي؟»).

ـ اهدَأْ يا جوبيرُ!... ما بالُكَ تَصرُخُ هَكذا؟ اهدَأْ! قَدْ تَكونُ روزي في النّاحيةِ الأُخرى مِنَ الحديقةِ.

ـ إيلينُ! أَسرعي. أُريدُ روزي الآنَ!... الآنَ!

وانتقلَتِ العاصفةُ إلى عَينَي الأمِّ، فانقلَبَ هُدوؤها قَلَقاً. وانعكسَتْ على وجهِها خيوطُ الشّمسِ **المُتهالِكةِ** وراءَ الأفقِ البعيدِ، فتحوَّلَتْ حُمرةُ خدَّيْها إلى صُفرةٍ وشحوبٍ.

المتهالِكَةُ: المتساقِطةُ.

- روزي!... روزي!... أينَ أنتِ يا حَبيبتي؟

وركضَتْ إيبينُ نحوَ الجانبِ الآخَرِ مِن حديقةِ المَنزلِ، ولَكِنَّ أحداً لَم يُجِبْ.

وعَلا النِّداءُ في كلِّ ناحيةٍ، وأخذَ يَتحوَّلُ إلى أصداءٍ تَضِجُّ في رأسِ الزَّوجَيْنِ، وتَتموَّجُ الأصداءُ كأنَّها تَغورُ في لُجَجٍ مِنَ القَلقِ والخوفِ.

روزي لَيسَتْ هُنا!... روزي لَيسَتْ هُناكَ!... لَيسَتْ في الحديقةِ!

وَصلَتِ الهُتافاتُ إلى آذانِ البيوتِ المُنتشِرةِ في أطرافِ المَزارعِ، فتَنادى الرِّجالُ مُستطلِعينَ الخبرَ.

روزي اختفَتْ!!... روزي، ابنةُ حوبيرَ، ضاعَتْ مِنَ البيتِ! هَل ضاعَتْ؟ هَل خُطفَتْ؟

ولَكِنْ غيرُ مَعقولٍ!... فهِي لَم تَخرُجْ يوماً مِن بَيتِها إلاَّ بِعِلْمِ أمِّها. لَم يَرَها أَحدٌ مِنَ الفَلّاحينَ تَقتربُ مِن بيتِهِ. لَم يَلْقَها أَحدٌ. إذاً لقَدْ خُطفَتْ!

- «لا!... غيرُ مَعقولٍ!...» يَصرخُ حوبيرُ وهو

اللُّجَجُ: مفردُها اللُّجَّةُ وهي العُمقُ ومُعظَمُ الماءِ.

يَرمي رأسَهُ بينَ يدَيْهِ. «مَن يَخطَفُها؟ لا أعداءَ لي في هٰذه النّاحيةِ كُلِّها! ولِمَ يَخطَفونَها؟».

وأخذَتِ النّساءُ يَتجمَّعْنَ هُنا وهُناك ويُثرثِرْنَ:

ـ مَتى تركَتِ البيتَ يا إيلينُ؟... ألعلَّها عِندَ إحدى رفيقاتِها؟

لَم تَكُنْ إيلينُ قادرةً على الإجابةِ. كانَتْ دموعُها تَتدحرجُ على خدَّيْها وهي عاجزةٌ عَنِ الجوابِ.

ـ لا!... لا!... أُريدُ ابنَتي!... أُريدُ ابنَتي!

وسُمِعَ صوتُ رَجلٍ يقولُ: «لعلَّها خَرجَتْ في طريقِ الغابةِ يا جوبيرُ».

التمعَتْ في رأسِ الأبِ المِسكينِ المُتهالِكِ على المَقعدِ الخشبيِّ صورةٌ مِن سهرةِ البارحةِ فهَتَفَ:

ـ طريقُ الغابةِ!... طريقُ الغابةِ!... لعلَّكَ على حقٍّ. ولٰكِنْ...

ـ ولٰكِنْ ماذا؟

ـ طُرُقُ الغابةِ مليئةٌ بالحطّابينَ والمُزارِعينَ في ساعاتِ المساءِ. فهَل يُعقَلُ أنَّ أحداً لَم يَرَها؟

ـ لعلّها سَلَكَتْ طريقاً غيرَ مألوفةٍ.

وعادَتْ حكايةُ السّهرةِ تَرتسِمُ في رأسِهِ مُجدّداً. البارحةَ سألَتْهُ روزي:

ـ هَلِ الغابةُ جميلةٌ يا أبي؟

ـ إنّها جميلةٌ جدّاً يا حَبيبتي. الأشجارُ المُتَشابِكةُ... الأزهارُ البرّيّةُ... النّباتاتُ الوَحشيّةُ...

ـ كَم أَوَدُّ رؤيتَها! أَوَدُّ رؤيتَكَ وأنتَ تعملُ في الغابةِ.

سأَستَصْحِبُكِ في العُطلةِ المُقبلةِ. ستُمضينَ مَعي نهاراً حُلواً.

ـ أتمَنّى لَو تَكونُ العُطلةُ غداً. أُحبُّ أَن أَكونَ معَكَ.

هَتفَ جوبيرُ مُنتفِضاً عَنِ الكُرسيِّ:

ـ إنّها هُناكَ! إنّها في الغابةِ!

وتَهالكَتِ الأمُّ وهِي تُردّدُ: «الغابةُ!... الغابةُ!... الذّئابُ!... الوحوشُ المُفترِسةُ!».

استصحَبَ فلاناً: دعاهُ إلى صُحبتِهِ، أخذَهُ بصُحبتِهِ.

تَوزَّعَ الرِّجالُ الأدوارَ، كلٌّ في طريقٍ. إنَّهُم خَبَروا هَذه الطُّرُقاتِ الضَّيِّقةَ والشِّعابَ الوَعِرةَ. ولَكِنَّ العَتْمةَ مُطبِقةٌ. والظُّلمةُ تَمحو كلَّ أثَرٍ، فتتحوَّلُ الأشياءُ إلى أشباحٍ تتمايَلُ وتَتراقَصُ معَ قَرْقَعاتِ الحَصى النّافرةِ تحتَ الأقدامِ القويّةِ.

ويَزدادُ الهَولُ والرُّعبُ كُلّما تَقدَّمَ مَوكِبُ الرِّجالِ. ولَكِنَّ أضواءَ القناديلِ الكاشفةَ كانَتْ تَتحدّى الظُّلمةَ وتُحاوِلُ قَهرَها، فتُصادِمُ وُعورةَ المَسالِكِ وتَشابُكَ الأَغصانِ.

وكانَتْ حَنجَرةُ جوبيرَ تَصرُخُ بَينَ الحينِ والآخَرِ: «روزي!.. روزي!».

ويَتردَّدُ النّداءُ في أغوارِ الغابةِ أصداءً تَختلِطُ بأصواتِ الرُّعبِ.

العُواءُ!.. العُواءُ!.. إنَّها الذِّئابُ!.. إنَّها الذِّئابُ!.. وكادَ القِنديلُ يَسقُطُ مِن يدِ جوبيرَ المُرتجفةِ. وأَخذَ يُتمتِمُ بحَشْرَجةٍ: «الذِّئابُ... الذِّئابُ... روزي.

الأغوارُ: الأعماقُ.

الحَشرجةُ: الغَرغرةُ عندَ المَوتِ، وتَردُّدُ النَّفَس.

ستُمزِّقُ جسدَكِ الطّريَّ... الذّئابُ. حَبيبتي روزي، ستَكونينَ طعاماً شهيّاً للذّئابِ».

وتَنبّهَ لبُندقيّةِ الصّيدِ الّتي يَحمِلُها على كَتِفِهِ، فأَخذَ يُطلِقُ الطَّلقةَ بعدَ الأُخرى ويَصرُخُ: روزي!

خُيِّلَ لجوبيرَ أنّهُ يَسمعُ صَدى نُباحِ كلبٍ. فالتمعَتْ في رأسِهِ فِكرةٌ، فقالَ: «لماذا غَفلْتُ عَنْها؟».

أَينَ جوبي؟ أينَ جوبي؟ لماذا لَم آتِ به معي؟

وأدركَ في تِلكَ اللّحظةِ ما أَثَّرَتْ فيه أحداثُ النَّهارِ. فالقَلقُ قَد أَخذَ مِنهُ كُلَّ تَفكيرِهِ. لماذا لَم يَتذكَّرِ الكلبَ الأمينَ مُنذُ اللّحظةِ الأولى؟ جوبي انتظرَهُ حَتّى عادَ مِن عملِهِ، واندفعَ مِنَ البابِ نَحوَ الغابةِ، لعلّهُ يَتبعُه ويُلاحِقُ روزي أيضاً. وراحَ يُردّدُ في نفسِهِ: «يا إلَهي! لماذا لَم أَتنبّهْ لهَذه الأحداثِ؟ ماذا أصابَني؟ ماذا حلَّ بي؟».

وعادَ يَتقدَّمُ في الغابةِ منادياً، وصوتُ البارودِ يَختلِطُ بعُواءِ الذِّئابِ، فتُدوّي الأصداءُ في أُذنَيْهِ وتَمحو مِن رأسِهِ صورةَ الحقيقةِ.

«إنَّها روزي تَصرُخُ!.. إنَّها تُنادي!.. إنَّها تَبكي!..

إنَّها تَتمزَّق بَينَ الأنيابِ الشَّرِسةِ! لا! لا يا إلَهي!».

ويُصادمُ رأسُ جوبيرَ جِذعَ شجرةٍ، فيَندفعُ الألمُ في كلِّ جسمِهِ، معَ كلِّ قَطرةٍ مِن دمِهِ. ولَكِنَّهُ يَستعيدُ وَعْيَهُ، ويَستعيدُ قُدرتَهُ على التّفكيرِ. وكأنَّ قوَّتَهُ قدْ عادَتْ إلَيْهِ وعزيمتَهُ قدْ ألهمَتَ قلبَهُ، فهَتَفَ بأعلى صوتِهِ:

ـ لَن أدَعَ الذِّئابَ تَمسُّكِ بسوءٍ!.. سأكونُ معَكِ يا روزي!

كانَتْ أضواءُ القناديلِ المتقدِّمةُ مِن كلِّ جهةٍ تَصُبُّ كلُّها في نُقطةٍ واحدةٍ عِندَ الصَّخرةِ الكبيرةِ المعروفةِ «بصَخرةِ جوبيرَ». عِندَ هَذه الصَّخرةِ كانَ يُمضي ساعاتِ الرَّاحةِ... عِندَها أَمضى شَطراً مِن شبابِهِ. ولطالَما حَدَّثَ أصحابَهُ عَن تِلكَ الصَّخرةِ، عَن شُموخِها وَسْطَ الأشجارِ العاليةِ كأنَّها واقفةٌ تَتحدّى هَذا الاِخضرارَ المُنتشِرَ في كلِّ مكانٍ.

ـ هَذه الصَّخرةُ هي صَخرتي الحَبيبةُ. عِندَها عَرفْتُ

العزيمةُ: الإرادةُ المؤكَّدةُ.
الشُّموخُ: العلوُّ والارتفاعُ.

الحبَّ الأوَّلَ، يومَ هامَ قلبي بإيلينَ!

وجَمَدَتْ عَينا جوبيرَ... ماذا يَرى؟ هَل هِي روزي أمامَهُ؟ ولَكِنَّها لا تَصرُخُ... لا تَبكي. وهذا جوبي يَدورُ حولَها... يَشُمُّها... يَنبَحُ نُباحاً مخنوقاً.

روزي!.. روزي!.. ويَقفِزُ جوبيرُ بكلِّ ما تَبقّى فيه مِن قوّةٍ وعَزمٍ نَحوَ الطِّفلةِ المُمدَّدةِ على الأرضِ. فيَتلمَّسُ عِندَ رأسِها جُرحاً صغيراً، وبعضَ قَطَراتٍ مِنَ الدَّمِ بدأَتْ تَجِفُّ.

ولَكِنَّ حرارةَ جسدِها الطّريِّ، وتَنفُّسَها المتقطِّعَ، قَد بعَثا في جسدِهِ الحياةَ مُجدَّداً فصَرخَ:

ـ إنَّها على قَيدِ الحياةِ!.. إنَّها على قَيدِ الحياةِ!

في صباحِ اليومِ التّالي كانَتْ يَدا جوبيرَ الخشِنتانِ تَحمِلانِ كوبَ الحَيبِ السّاخِنِ إلى فِراشِ روزي، حَيثُ أَمضَتْ إيلينُ ليلَتَها وهِي تُدفِّئُ بحَنانِها جسدَ الطِّفلةِ المحمومَ.

وانفتحَتِ العَينانِ الصّغيرتانِ وتَمتمَتْ روزي:

ـ أبي! سامِحْني يا أبي! لَن أُحاولَ الذَّهابَ وحيدةً



إلى الغابةِ بعدَ اليومِ!

ارتَسَمَتْ على وجهِ جوبيرَ بَسمةٌ مُشرِقةٌ فمَحَتْ مِن ذِهنِهِ صورةَ العالَمِ كلِّهِ. وتَمتمَ:

ـ ألا تُريدينَ أَن أُقبِّلَ التُّفّاحتَيْنِ؟

ـ بَلى! واحدةً لفَطورٍ، وواحدةً لغَداءٍ!

ـ لا بأسَ.. لا بأسَ يا حَبيبتي! ستَكونينَ معي في الغابةِ في المرّةِ المقبِلةِ.

مُشرقةٌ مُضيئةٌ.

قصة

القَلبُ المُتعَبُ

تَهالَكَتْ سُعادُ على المَقْعَدِ **الوثيرِ** وهِي تَصُبُّ نَقمتَها على المِصعَدِ الكهرَبائيِّ المعطَّلِ؛ فقَدِ اضطَرَّها إلى الصّعودِ على الدَّرَجِ حَتّى الطّبَقةِ الرّابعةِ. كانَتْ كُلَّما رَفعَتْ رِجلَها فوقَ إحدى الدَّرجاتِ تُحسُّ بأنَّ قلبَها يَدُقُّ مُتمرّداً في صَدرِها.

وما إن أطلَّ البابُ أمامَ ناظِرَيْها حَتّى شَعرَتْ بالدُّوارِ فكادَتْ تَسقُطُ قبلَ أَن تُلامِسَ دَفَّتَهُ الخشبيّةَ. وزاغَتْ عَيناها في ثَقْبِ المِفتاحِ. لَن تَقرعَ الجَرسَ، فكَمالٌ لَم يأتِ بَعدُ مِن عملِهِ. سيَمرُّ بعدَ قليلٍ على وليدٍ ليأتيَ به مِنَ المدرسةِ.

الوثيرُ: الوَطيءُ الليِّنُ المُريحُ.

ولَكنَّ الوقتَ بطيءٌ، ودقّاتُ السّاعةِ الخافتةُ تَضِجُّ في رأسِها فتُصادِمُ ضَرَباتِ قلبِها، وتَتعثّرُ بتَقطُّعِ أنفاسِها.

ـ كمالُ! لماذا تأخَّرْتَ؟

ـ لَم أتأخَّرْ يا سُعادُ. ها قدْ وَصَلْتُ على عادَتي، فالسّاعةُ لَم تُقارِبِ الثّالثةَ بَعدُ؛ ولَكِنْ ما بالُكِ مُتْعَبةً هَكذا؟

ـ لا أَدري... لا أدري يا كمالُ. أُحِسُّ بأنَّ قلبي يَتمزَّقُ.

ـ لعلَّ **الإرهاقَ** في العملِ يُتعِبُكِ، علَيْكِ أَن تَستريحي قليلاً. سأَتَولّى بنفسي تدبيرَ الطَّعامِ.

ـ وليدُ... تعالَ يا حَبيبي... تعالَ.

وراحَتْ سُعادُ تُغرِقُ الصَّبيَّ في قُبُلاتِ الحنانِ. كادَتْ تَنسى وليداً لِلَحظاتٍ. ولَكِنّها استعادَتْ نفْسَها وضَمَّتْهُ إلى صَدرِها. تُريدُ تحطيمَ كِيانِهِ في كِيانِها!

ـ وليدُ... كَيفَ حالُ المدرسةِ؟ المعلّمةِ؟ هَل أَكلْتَ

الإرهاقُ: حملُ النّفسِ على ما لا تقدرُ عليه، أي فوق طاقتها.

طعامَكَ؟.. المَوزةَ؟ التُّفّاحةَ؟

وابتسمَتِ ابتسامتَها **المعهودةَ**، فضَحِكَ وليدٌ وأجابَ بكلامٍ لَم يَنضَجْ لفظُهُ بَعدُ:

ـ أَكلْتُ كلَّ ما أعطيتِني، ولَكِنّني الآنَ جائعٌ.

ـ مَهلاً!.. مَهلاً!.. سأقومُ، بمساعدةِ أبيكَ، بإعدادِ الغداءِ. ثمّ تَرتاحُ قليلاً قبلَ الدَّرسِ واللَّعبِ.

واجتمعَتِ العائلةُ الصّغيرةُ إلى الطّاولةِ المُستديرةِ، على عادتِها في مثلِ هَذه السّاعةِ مِنَ النّهارِ.

ـ كَيفَ العملُ في المَصْرِفِ يا سُعادُ؟ ما أخبارُكِ هَذا اليومَ؟

ـ لا شيءَ جديداً، سِوى أنَّ المَوظّفينَ يَتحدّثونَ عَن إضرابٍ جديدٍ.

ـ إضرابٍ جديدٍ؟! وما الغايةُ مِنهُ؟

ـ المُطالَبَةُ بِرَفعِ الأجورِ. فالغلاءُ غولٌ يَبتلعُ الرّواتبَ بشكلٍ جنونيٍّ.

ـ ويَبتلعُ معَهُ عافيتَنا وحياتَنا.

المعهودةُ: المعتادةُ.

وتَتصاعدُ مِن صَدرِ كمالٍ زَفرةٌ حارَّةٌ. وتَتسمَّرُ عَيناهُ في وجهِ سُعادَ الّذي يَبدو الإرهاقُ على قَسَماتِهِ الشّابَّةِ. فيُتمتِمُ في حالةٍ مِنَ اليَأسِ:

ـ لَقَدِ استعجَلْنا الزّواجَ سُعادُ. كانَ علَيْنا أن نُؤَمِّنَ مُستقبَلَنا أكثرَ قبلَ أن نُقدِمَ على هَذه الخُطوةِ. لَو تَمهَّلْنا أكثرَ لكُنتِ الآنَ في البيتِ تَهتمّينَ بوليدٍ، ولَما احتَجْتِ إلى العملِ في الخارجِ.

ـ دَعْكَ مِن هَذا الحديثِ الآنَ. علَيْنا أن نأكُلَ طعامَنا بدونِ هَذه الفِكَرِ المُتعِبةِ.

وسادَ صمتٌ لَم تَقطَعْهُ إلّا أصواتُ المَلاعقِ والشُّوَكِ، وبعضُ ثَرثراتِ وليدٍ القليلةِ. فهو مُنشغِلٌ بالمَضغِ، ولا يَجدُ متَّسعاً للكلامِ على مُعلِّمَتِهِ ورُفقائِهِ، ومَن ضَربَهُ في المدرسةِ. ثَرثراتٌ لا تَنتهي لَو **أُعْتِقَ** فَمُه مِنَ اللُّقَمِ الكبيرةِ.

ولَكِنَّ الانطباعَ الحزينَ على وجهِ الوالدِ الشّابِّ،

أُعتِقَ: حُرِّرَ.

والتّعبَ المُرتسِمَ في عَينَي الأمِّ، قدِ انعكَسا على تصرُّفاتِهِ، فأخذَ يُنقِّلُ بَصرَهُ بينَ الوَجهَيْنِ الفَتيَّيْنِ، وعَيناه تُسائلانِهِما عَنِ الأمرِ الّذي طَبعَ جِسةَ اليومِ بطابَعِ الحُزنِ والقَلقِ.

- لماذا لا تَمضَغُ اللُّقمةَ يا وليدُ؟

ويَهُزُّ بكَتفِهِ ويَقولُ:

- لا أُحبُّ هَذا النّوعَ مِنَ الطّعامِ.

- ومَتى كُنتَ لا تُحبُّ البطاطا المقليَّةَ؟

ويَكتفي وليدٌ بكَلِمةٍ واحدةٍ: «لا أُحبُّها...» ويَمتنعُ فَمُه عَنِ الحركةِ، فتُدرِكُ الأمُّ في أعماقِ قلبِها سرَّ تَوقُّفِ ابنِها عَنِ الطّعامِ. **فتُربّتُ كَتِفَهُ** وتَقولُ:

- لا بأسَ... لا بأسَ الآنَ... ستأكُلُ فيما بَعدُ، عندَما تَشعرُ بالجوعِ أكثرَ.

استراحةُ بَعدِ الظُّهرِ لَم تُبدِّلْ في الأجواءِ المُطْبِقةِ على البيتِ. ولَكنَّ استراحةَ وليدٍ في غَفوةٍ طويلةٍ قَد أعادَتْ إلى كمالٍ شيئاً مِنَ الهدوءِ، فراحَ مُسترسِلاً في ذِكرياتِ الماضي.

ربّتَ الصّبيَّ أو كتِفَهُ: ضربَهُ ضرباً خفيفاً ليَنام أو لتطييبِ خاطرِه.

مُنذُ سَبعِ سَنواتِ أَحبَّ سُعادَ. كانا في جامعةٍ واحدةٍ. هو في السّنةِ الأخيرةِ وهِي في السّنةِ الثّانيةِ. وفي يومِ تخرُّجِهِ بالذّاتِ تَعاهدا على الزّواجِ.

ـ ها قدْ أَنهيْتُ دراستي الجامعيَّةَ. في الغَدِ سأكونُ مسؤولاً في شِرْكةٍ تجاريَّةٍ. سأتوَلّى قِسمَ المحاسَبةِ كما وَعدَني صديقُ والدي.

ـ وهَل يُناسبُ العملُ مؤهّلاتِكَ العلميّةَ؟

ـ مَحالاتُ التّدرُّجِ مُتوافرةٌ بسُهولةٍ. قَد أُضطَرُّ إلى السّفرِ خارجَ البلادِ لبَعضِ الوقتِ.

ـ أرجو أَن لا يَطولَ سفرُكَ... إنّي أكرَهُ الفِراقَ.

ـ لَن نَفترِقَ أبداً يا سُعادُ. سنتانِ وتُنهينَ دراستَكِ ونَتزوَّجُ. ولَن نَفترِقَ بعدَئذٍ أبداً.

ـ أَرجو أَن تَمضِيَ السّنتانِ بسُرعةٍ. أَكرهُ الانتظارَ كما أَكرهُ الفِراقَ.

ويَضحكانِ معاً، ويَتبادلانِ نِظْراتِ الحُبِّ، الحُبِّ الّذي جَمعَهُما في عائلةٍ واحدةٍ بعدَما أنهَتْ سُعادُ دراستَها الجامعيَّةَ، ودخلَتْ موظَّفةً في أَحدِ المَصارفِ.

وكمالٌ تَثبَّتَ عملُه في الشّرْكَةِ وازدادَ راتبُه.

ويَنقطِعُ خَيطُ الأحلامِ. فسُعادُ تَسألُه بحنانٍ:

ـ كمالُ، أتَشربُ القهوةَ؟

ـ أنا بانتظارِكِ.

ـ تعالَ نَجلِسْ على الشُّرفةِ. فالطّقسُ لطيفٌ هَذا النّهارَ.

كانَتْ شِقّتُهما في إحدى بناياتِ الضّاحيةِ المُطلّةِ على البحرِ. وعلى هَذه الشُّرفةِ يَجلِسانِ في ساعاتِ الرّاحةِ، يَمْلأانِ صَدرَيْهِما بأنسامٍ بَليلةٍ تَتصاعدُ في أُمسيّاتِ آدارَ، فتَستوقِفُ الأيّامَ بَينَ ربيعٍ مُبكّرٍ في المدينةِ، وشتاءٍ يُحاولُ أَنْ يَمُدَّ أيّامَهُ عَبرَ بعضِ الغيومِ المتقطّعةِ.

أَشعرُ بضيقٍ في صَدري يا كمالُ. هو يُلازِمُني مُنذُ أكثرَ مِن أُسبوعٍ.

ـ إنّهُ التّعبُ يا حَبيبتي. علَيْكِ بالرّاحةِ قليلاً.

ـ ومِنْ أَينَ الرّاحةُ؟

ـ ما رأيُكِ لَو تَطلُبينَ عُطلةَ أسبوعٍ؟ لعلّها تُعيدُ إلَيْكِ نشاطَكِ.



ـ قَد أَجِدُ الأيّامَ مُمِلَّةً وأنا وحيدةٌ في البيتِ. لَم أعتَدْ مِثلَ هَذه الرّاحةِ.

ـ ولَكِنَّكِ بحاجةٍ إِلَيْها.

ـ لَيسَ الآنَ. سنَترُكُ العُطلَةَ لِلصَّيفِ المُقبِلِ ونَتمتَّعُ بها معاً. أَما وَعدْتَني بالسّفرِ هَذا الصَّيفَ إلى جُزُرِ «اليونانِ»؟

ـ بالتّأكيدِ، فأنا على وَعدي. سنُسافِرُ في عُطلتِنا الصَّيفيَّةِ.

ويَطولُ الحِوارُ، ويَتنوَّعُ الحديثُ. ما دامَ وليدٌ لا يَزالُ نائماً فالفرصةُ سانحةٌ لِمثلِ هَذه الجَلَساتِ الهادئةِ.

ولَكِنْ سُرعانَ ما يَنقلِبُ هدوءُ البيتِ إلى عاصفةٍ مِنَ البكاءِ والصُّراخِ حيناً، والضَّحِكِ حيناً آخَرَ.

وتَسمعُ بَينَ الوقتِ والآخَرِ نداءاتِ الصَّبيِّ ابنِ الثّالثةِ والنِّصفِ وتَكثُرُ طَلَباتُه.

يُريدُ الماءَ... يُريدُ الطّعامَ... يُريدُ لُعَبَهُ. وتَمضي ساعاتُ النّهارِ المُتبقّيةُ. كمالٌ ووليدٌ يَلعبانِ،

يَتصارعانِ. وسُعادُ تُعِدُّ بعضَ الطّعامِ لِعَشاءِ، أو لغَداءِ اليومِ التّالي.

وتَكُرُّ الأيّامُ، فتُسابِقُها إرادةُ الحياةِ، إرادةُ الحُبِّ.

ـ هَذه هِي المرّةُ الثّانيةُ الّتي تَشعُرينَ فيها بهَذا الضّيقِ في صدرِكِ يا سُعادُ. ألَيسَ هَكذا؟

ـ بَل هِي الثّالثةُ مُنذُ ثلاثةِ أَسابيعَ.

ـ علَيْكِ باستشارةِ الطّبيبِ عاجلاً.

ولِمَ العجَلةُ؟ لا تَشغَلْ فكرَكَ بالأمرِ. ألا تَعلَمُ ماذا سيَقولُ الطّبيبُ؟

ـ وماذا سيَقولُ؟

ـ «حَتماً هَذا تعبُ أعصابٍ. إنّهُ الإرهاقُ يا سيّدةُ سُعادُ. عليْكِ أنْ ترتاحي قليلاً».

ـ أراكِ تُخطّطينَ مرضَكِ بسهولةٍ مُطلَقةٍ.

ـ هَذا هو مرضُ هَذه الأيّامِ يا كمالُ. النّاسُ جميعُهُم مَرضى بالأعصابِ. الصّيدليّاتُ تَمتلئُ بأصنافِ أدويةِ الأعصابِ. والنّاسُ يَصِفونَها بعضُهُم لِبعضٍ كأنَّهُم جميعاً اختِصاصيّونَ.

تكُرُّ: تجري وتَتوالى.

ـ دَعْكِ مِن هَذا التَّهرُّبِ. عليْكِ باستشارةِ الطّبيبِ.

ـ قلبي مَرِضَ بالحُبِّ مرَّةً واحدةً، ولَن يتكرَّرَ مرضُه أبداً!.. لا عليْكِ!..

ويَعلو الضَّحِكُ. وتَغيبُ مَسحةُ التّعبِ عَن وجهِ سُعادَ. إنَّها السّعادةُ تَعمُرُ في قَسَمي الزَّوجَيْنِ الشّابَّيْنِ. إنَّها السّعادةُ تَصرُخُ في صوتِ وليدٍ وقَدْ أفاقَ مِن نومِهِ وهو يُنادي: «بابا... ماما...».

غَيرَ أنَّ الأيّامَ كانَتْ تُخبّئُ لِهَذه العائلةِ ما لَم يَكُنْ بالحِسبانِ.

رنينُ الهاتفِ يَضِجُّ في غُرفةِ كمالٍ، المُديرِ الماليِّ للشّرْكةِ. لعلَّ أوراقاً جديدةً تَنتظِرُ مُراجعاتِهِ ومُوافقتَهُ علَيْها قَبلَ أَن تُصبحَ ساريةَ المفعولِ.

وتَرتجِفُ السَّمّاعةُ بَينَ أصابعِهِ. ويُ**مْتَقَعُ** وَجهُه، وتَنفُرُ عَيناهُ مِن **مَحْجَرَيْهِما**:

ـ ماذا؟ سُعادُ نُقلَتْ إلى المُستشفى؟! ماذا جَرى لها!؟

يُمتَقَعُ: يَتغيّرُ لونُه مِن حُزنٍ أو فَزَعٍ أو ريبةٍ.
مِحجرُ العين: ما دارَ أو أحاطَ بها.

وتَرتسِمُ أمامَ عَينَيْهِ صُوَرُ الأيّامِ الماضيةِ: سُعادُ تَتهالَكُ على المَقعدِ كُلَّما تَعبَتْ قَيلاً... وجْهُها مُضطرِبٌ هَذا النّهارَ... ضَرَباتُ قلبِها تَتسارَعُ وهِيَ تَصعَدُ الدّرجَ...

«يا إلَهي!.. أمريضةٌ هي حقّاً؟!».

بناياتُ المدينةِ كلُّها، وشوارعُها، وطُرقاتُها، وأحياؤها، عابَتْ عَن مُخيِّلتِهِ. ألنّاسُ تَتحرَّكُ، خِيالاتٌ تَتراقصُ على الأرصفةِ. الطّريقُ إلى المُستشفى سريرٌ أسودُ لا بدايةَ له ولا نهايةَ، وسُعادُ تَرتجِفُ على هَذا السّريرِ. سُعادُ تَمُدُّ يدَها تَطلُبُ إليْهِ النّجدةَ. يدُهُ لا تَصلُ إلَيْها، لا تَصِلُ لكَي تُدرِكَ طَرَفَ هَذا السّريرِ الأسودِ.

يا إلَهي! ما هَذه الهواجسُ؟ ما هَذه الرُّؤى القاتمةُ؟

أمامَ بابِ الغُرفةِ تَسمَّرَتْ عَينا كمالٍ في اللَّوحةِ الصّغيرةِ: «غُرفةُ الطّوارئ».

- زوجتُكَ في غُرفةِ العنايةِ **القُصوى** يا أستاذُ كمالُ.

- أرجو مِنكَ يا دُكتورُ. أرجو مِنكَ أنْ تصارِحَني

القُصوى: الفائقةُ، العُليا.

بالحقيقةِ. ما بها؟ هَل هِيَ في خطرٍ؟

ـ اهدَأْ يا كمالُ اهدَأْ. عَليْكَ أن **تَتمالَكَ**.

ـ رجاءً صارِحْني يا دُكتورُ!

ـ سأُصارِحُكَ بِكلِّ شيءٍ. علَيْنا أَن نَجلسَ أوّلاً في مَكتبي لِنَعرِضَ الأمرَ معاً بهدوءٍ و**رَوِيّةٍ**.

وفي مَكتبِ الطّبيبِ **تَنجلي** الحقيقةُ، تَصِحُّ التَّوقُّعاتُ الحَجولَةُ الّتي لَم **يَتجاسَرِ** الزَّوجانِ على أَن يَتحدَّثا عَنْها في جَلَساتِهِما الطّويلةِ. جَلَساتُ الحُبِّ والسّعادةِ لَم تَكشِفْ حَقيقةَ الدّاءِ.

العملُ المُرهِقُ في المَصرِفِ هو وحدَهُ الّذي كَشفَ الحَقيقةَ المُرَّةَ، الحَقيقةَ الّتي كادَتْ أَن تُحطِّمَ كمالاً. فغَرِقَ رأسُه بَينَ يدَيْهِ وهو يُسقِطُ دموعَ الخوفِ والقَلقِ. هَل سُعادُ في خطرٍ إلى هذا الحدِّ؟

ـ سأَبذُلُ كلَّ ما أَملِكُ يا دُكتورُ، كلَّ حياتي، ثمناً

تمالَكَ: مَلَكَ نفسَهُ وضبطَها.

الرَّوِيّةُ: النّظرُ والتّفكّرُ في الأمورِ بهدوءٍ وبلا تَسرُّعٍ.

تَجلي: تتّضِحُ، تَنكشِفُ بوضوحٍ.

تَجاسَرَ: تجرّأَ.

لتَخيصِها. أُريدُ لَها أَن تَعيش، أُريدُ لَها أَن تَحيا.

وتَرِنُّ في رأسِهِ كَلِماتُها الماضيةُ، يومَ تَعاهدا على الزَّواجِ. قالَتْ له:

ـ أَكرَهُ الفِراقَ يا كمالُ... أَكرَهُ الِانتظارَ.

ويَقطعُ خيطَ تأمُّلاتِهِ صوتُ الطَّبيبِ:

ـ عليْكَ بالتَّروّي يا كمالُ. لَم نَقطَعِ الأملَ مُطلَقاً. لقَدِ استدعَيْتُ طبيباً آخَرَ لنُحدِّدَ معاً الدّاءَ، وبعدَئذٍ نُقرِّرُ الخُطوةَ التّاليةَ.

ـ شُكراً لكَ يا دُكتورُ. تَصرَّفْ بما تَراه مناسِباً. كلُّ ما أَرجوهُ هو أَن تَبقى سُعادُ على قَيدِ الحياةِ.

أَخذَتْ نَظَراتُ كمالٍ تَتيهُ على جُدرانِ هَذا المَكتبِ الأنيقِ، وفي هَذه اللَّوحاتِ الطِّبِّيَّةِ. وتَوقَّفَتْ عَيناهُ عِندَ واحدةٍ مِنها، واحدةٍ تَحمِلُ صورةَ قلبِ الإنسانِ. مِثلُه قلبُ سُعادَ، وقلبي، وقلبُ النّاسِ أَجمعينَ. هَذه الكُتلةُ اللَّحميَّةُ العجيبةُ جعلَ الحُبُّ ضَرَباتِها نغماً إيقاعيّاً،

تاهَ: ذَهَبَ متحيِّراً وضَلَّ.

معزوفةَ الأوتارِ السّاحرَةِ؛ وجعلَها الطِّبُّ مختبَراً وحقلاً للسّكاكينِ.

أَينَ يَختبئُ الحبُّ فيها؟ أفي هَذه الشّرايينِ، أَم في **التّجاويفِ**؟ أَينَ يَعيشُ حبُّكِ يا سُعادُ؟

وتَغرورِقُ عَيناهُ بالدّموعِ، فيَرتسِمُ القلبُ على كلِّ قَطرةٍ. «آهِ لو أَقدِرُ أَن **أَفْديَكِ** بقَلبي!.. إنّي أَكرَهُ الفِراقَ!.. لَم أفكِّرْ يوماً في الوصولِ إلى هَذه السّاعةِ. لماذا لا يَكونُ لكِ قلبٌ آخَرُ؟ مَرِضَ قلبُكِ مرّةً واحدةً بحُبّي ووَجدَ شفاءَهُ، هَكذا كُنتِ تُردِّدينَ دائماً. ولَكِنْ هَل سيَجِدُ الطِّبُّ شفاءَ هَذه الكُتلةِ اللَّحميّةِ؟».

وتَتحرَّكُ يدُ الطّبيبِ على لَوحةِ القلبِ المرسومِ بالألوانِ:

ـ انظُرْ يا كمالُ. هَذا الشِّريانُ الدّقيقُ، هُنا، يُرجَّحُ أنَّ العُطلَ فيه. هَكذا أَبرزَ التّخطيطُ الأوّليُّ. وسنَنتظِرُ تخطيطاً آخَرَ في الغَدِ، لعلّهُ يَكشِفُ لنا الأمرَ بوضوحٍ أكثرَ.

التّجاويفُ: الأماكنُ المجوّفةُ.

فَدى فلاناً مِن الأسرِ وغيرِهِ: أنقذَهُ بمالٍ أو سواهُ.

«ومعَ هَذا، لَن أُخفِيَ عَنكَ أنَّ الخطرَ شديدٌ في الوقتِ الحاضرِ. والعمليَّةُ ستكونُ ضروريَّةً ومُستعجَلةً. غَيرَ أنَّ فُرصَ النَّجاحِ كثيرةٌ. والأملُ كبيرٌ أيضاً. وعلَيْكَ أنْ تُهدِّئَ رَوْعَكَ لكَي تَقدِرَ على مجابهةِ الحقيقةِ. علَيْكَ أَن تُقوِّيَ نفسَكَ، فلدَيْكَ في البيتِ مسؤوليَّةُ إنسانٍ آخَرَ. لا تَنسَ وليداً. لعلَّهُ لَن يَفهمَ شيئاً عَن غيابِ أُمِّهِ عَنهُ، فعلَيْكَ أَن تُعوِّضَهُ مِن هَذا الغيابِ بِنفسِكَ».

ـ أنتَ على حقٍّ يا دُكتورُ... أنتَ على حقٍّ. لَن تَفتحَ سُعادُ البابَ هَذا النّهارَ لتَضُمَّ وليداً إلى صَدرِها. لَن نَنتظِرَ معاً قيامَهُ مِنَ النَّومِ، ولَن تَصرُخَ في وَجهِهِ إذا تَشَيْطَنَ!

وغَرِقَ مَكتبُ الطّبيبِ في صَمتٍ لا تَقطَعُه إلّا طَبَاتُ الهاتفِ، والأنفاسُ الحَرّى، وأصداءُ التّأوُّهاتِ المُتصاعدةِ معَ نَفَثاتِ الدُّخانِ الكثيفِ.

ـ ستَتولّى أمّي أمرَ وليدٍ هَذه الفترةَ. لَن أُغادرَ

الرَّوعُ: الخوفُ، الفزعُ

المُستشفى أبداً قبلَ أَنْ يَزولَ الخطرُ عَن سُعادَ.

ـ كما تَشاءُ يا كمالُ. غداً سنُقرِّرُ كلَّ شيءٍ.

كانَتِ التَّجربةُ قاسيةً جدّاً على الزَّوجِ الشّابِّ. هَل يُقرِّرُ بنَفسِهِ مصيرَ سُعادَ؟ هَل يُوافِقُ الطَّبيبَ على إجراءِ العمليَّةِ معَ ما فيها مِن خطرٍ بالغٍ؟ هَل يَرفُضُ ويَترُكُ الأمرَ لسُعادَ، فتُقرِّرَ لنفسِها مصيرَها؟

هَذه الفِكَرُ شَغلَتْ لَيلَهُ. لَم يَنَمْ... لَم يُقرِّرْ... ولَمْ يُعلِنِ اختيارَهُ. قرارُه في الحالتَيْنِ يَعني المصيرَ الغامضَ.

كانَ الفراغُ يَملأُ قلبَهُ، يَملأُ عقلَهُ ومَشاعِرَهُ.

ـ لَن أَقدرَ على إقرارِ شيءٍ. سأَستسلِمُ لمشيئةِ اللهِ.

ـ بَل عليْكَ أَن تُقرِّرَ بنفسِكَ يا كمالُ. عليْكَ أَن تختارَ، فزوجتُكَ لا تَزالُ في خطرٍ، والعمليَّةُ ضروريَّةٌ متى هَدأَتْ عَنْها النَّوبةُ الطّارئةُ. التَّخطيطُ الثّاني يؤكِّدُ التَّخطيطَ الأوَّلَ.

ـ افعلوا ما تَرَوْنَهُ مناسباً يا دُكتورُ. ولَكِنْ لِمَ لا نَدَعُ الأمرَ لسُعادَ متى عادَتْ إلى وَعيِها الكاملِ؟

ـ لَن يكونَ لها الخِيارُ. فالعمليَّةُ ضروريَّةٌ و**مُلِحّةٌ**.

في ذَلكَ النّهارِ أَخذَتْ صِحّةُ سُعادَ تَتحسَّنُ قليلاً، وسُمحَ لكمالٍ برؤيتِها، معَ شروطٍ قاسيةٍ مِن الطّبيبِ: «عليكَ ألّا تُثيرَ عواطفَها... التّأثُّرُ يُضرُّ بها... لا تَدَعْها تَتكلّمْ...».

كانَتْ يدُها تَغرَقُ بَينَ يدَيْهِ، وعَيناها تَسبحانِ في عَينَيْهِ. كَلِمةٌ واحدةٌ انطلقَتْ مِن شفتَيْها: «كَيفَ حالُ وليدٍ؟».

ـ بخَيرٍ يا حَبيبتي... بخَيرٍ. لا تَهتمّي بشيءٍ. صِحّتُكِ هِيَ الأهمُّ... لقَدْ تدبَّرْتُ الأمورَ.

كانَ لقاءً خاطفاً. فالقلبُ المُتعَبُ لَم يحتمِلْ هَذا الموقِفَ. أَخذَتْ ضَرَباتُه تَتصاعدُ، فتَرتسِمُ خطوطٌ مُضطرِبةٌ على الآلةِ الكهرَبائيَّةِ **القابعةِ** في زاويةِ الغُرفةِ.

ونادَتِ الممرِّضةُ كمالاً: «اليومَ يَكفي يا أستاذُ. بإمكانِكَ أنْ تَراها غداً». وانسَلخَ وُجودُه مِن عَينَيْها.

مُلِحّةٌ: ضاغطةٌ ومستَعجَلَةٌ.
القابعةُ: المُتواريةُ، المخفيّةُ.

مَتى كانَ يَتصوَّرُ مِثلَ هَذا المَوقِفِ؟ مَتى كانَ يُفكِّرُ أنَّ إرادةً في الدُّنيا تَقدِرُ أَن تَفصِل بَينَهُ وبَينَها؟

ولَكِنْ، هَذه هِي الحقيقةُ المُرَّةُ. هَذه هِي مشيئةُ اللهِ.

ومَضتْ أيّامٌ ثلاثةٌ، بَينَ الانتظارِ والقَلقِ والحَيرةِ. وكمالٌ يَنتظرُ **الكَلِمةَ الفَصلَ** مِنَ الطَّبيبِ.

ـ الحمدُ للهِ يا كمالُ. إنَّ سُعادَ استجابَتْ للدّواءِ وزالَ الخطرُ الفَوريُّ.

ـ هَل بإمكانِها أَن تَعودَ إلى البيتِ؟!

ـ في عَودتِها **مُجازَفةٌ**. فقَدْ تُعاوِدُها النَّوبةُ في أيِّ وقتٍ.

ـ ما العملُ يا دُكتورُ؟

ـ ستَرتاحُ أُسبوعاً في المُستشفى تحتَ المُراقَبةِ. وبعدَئذٍ لا بُدَّ مِن إجراءِ العمليَّةِ. سأُصارِحُها بالأمرِ في حضورِكَ. صارَ بإمكانِكَ زيارتُها ساعةَ تَشاءُ

الكلمةُ الفصلُ: الفاصِلةُ والنّهائيّةُ.
المجازَفةُ: المخاطَرةُ.

ومحادَثَتُها. عليْكَ أَن تُهيِّئَ لها الجوَّ لكَي لا تَصدِمَها فكرةُ العمليَّةِ.

ـ سأَبذُلُ جُهدي... سأُحاوِلُ.

لَم تَكُنْ لسُعادَ ردَّةُ فعلٍ رافضةٌ على حديثِ كمالٍ:

ـ إذا كانَتِ العمليَّةُ ضروريَّةً فلِمَ التَّأَخُّرُ في إجرائِها؟

ـ ولَكِنَّ أيّامَ الرّاحةِ ضروريَّةٌ حَتّى تَستعيدي نشاطَكِ.

ـ لا بأسَ. كما تَشاءُ يا كمالُ. ولَكِنْ أُريدُ رؤيةَ وليدٍ.

ـ سأُحضِرُه إلَيْكِ في الغَدِ. ستَرَيْنَهُ عىى أَحسنِ حالٍ.

لَم تَكُنْ أيّامُ هَذا الأُسبوعِ أجزاءً مِن تَوالي الزَّمنِ بالنِّسبةِ إلى كمالٍ. فالفراغُ والحَيرةُ والقَلقُ والانتظارُ قَد وَصلَتْ دقائقَ السّاعاتِ بعضَها بالبعضِ الآخَرِ، فتَحوَّلَتْ إلى يومٍ طويلٍ... طويلٍ لا يَنتهي.

في الصَّباحِ الباكرِ ستُجرى العمليَّةُ لسُعادَ. في هَذه

السّاعةِ ستَقِفُ حياةُ مَن أَحَبَّ موقِفَ التَّخلّي عَن كلِّ إرادةٍ. عَن كلِّ شيءٍ.

خُطوةٌ واحدةٌ: إمّا الحياةُ وإمّا الموتُ. لَن يَكونَ له قرارٌ في مصيرِ سُعادَ، وفي مَصيرِ قلبِهِ وحُبِّهِ وحياتِهِ، لَيسَ له إلّا الِانتظارُ.

وطالَ الِانتظارُ. ساعةً... ساعتَيْنِ... أَكثرَ... لَم يَعُدْ يَقدِرُ الزَّمنَ. ألعَقْربُ يَدورُ ويَدورُ. بِسُرعةٍ... ببُطءٍ... إنَّهُ يَتوقَّفُ هُنا... ولَكِنَّهُ يَعود إلى الحركةِ... يُسرِعُ... يُبطِئُ.

لِمَ النَّظرُ إلى السّاعةِ؟ السّيكارةُ أَفضَلُ. واحدةٌ، اثنتانِ، عُلبةٌ... عُلبتانِ. وتَرتمي العُلَبُ الفارغةُ في سلّةِ المُهمَلاتِ. هَكذا تَحترِقُ الدّقائقُ والسّكائرُ، وتَنهارُ السّاعاتُ والعُلَبُ.

وضَربَ كمالٌ رأسَهُ بِيَدَيْهِ صارخاً: «ولَكِنَّها السّاعةُ العاشرةُ! يا إلَهي! لماذا كلُّ هَذا التَّأخُّرِ؟».

يقدِرُ: يقيسُ.

لَم يُنْهِ كَلِماتِهِ حَتّى ارتَسمَ أمامَ عَينَيْهِ طَيفُ الدُّكتورِ بثوبِهِ الأبيضِ. إنَّهُ يَبتسمُ... ولَكِنْ أَبَسمةُ الِانتصارِ هي أَمْ بَسمةُ التَّعزيةِ؟

ـ دُكتورُ... أَستَحلِفُكَ! ما الخبرُ؟

ـ اطمئنَّ يا كمالُ!.. اطمئنَّ!.. الحمدُ للهِ على السّلامةِ!

وتَراخى كمالٌ على المَقعدِ. أحقّاً يَسمعُ ما يَسمعُ؟ هَلِ انتهى **الكابوسُ**؟ هَل خَطَتْ سُعادُ خُطْوتَها نَحوَ الحياةِ؟ أَشكرُكَ يا إلهي!.. سُعادُ ما تَزالُ على قَيدِ الحياةِ!

كانَتْ **تَباشيرُ** الصّيفِ تُنذِرُ المدينةَ بطَقسٍ حارٍّ فاجأَ النّاسَ معَ مَطلَعِ حُزيرانَ. والجلسةُ على الشُّرفةِ المُطِلَّةِ على البحرِ تَبعَثُ الرّاحةَ في النّفسِ. فلَطالما **افتقَدَها** الزّوجانِ الشّابّانِ طيلةَ هَذه المُدّةِ، وافتقَدا معَها

الكابوسُ: الحُلمُ المُزعِجُ.
التّباشيرُ: البُشرى، أوائلُ كلِّ شيءٍ.
افتقدَ فلاناً أو الشّيءَ: طلبهُ عندَ غيبتِهِ وفُقدانِه.

الثَّرثراتِ الحُلوةَ.

- أيّامٌ لَيسَتْ مِن عُمرِنا يا سُعادُ، كانَتْ تَجرِبةً قاسيةً كادَتْ تَقضي على سعادتِنا.

- الحُبُّ أَقوى مِنَ الموتِ يا كمالُ. لا تَخَفْ، لَن أموتَ ما دامَ قلبي يَعمُرُ بحُبِّكَ.

غَيرَ أنَّ وليداً، الطِّفلَ الحَبيبَ، لَم يَشأْ أن يُريحَ البيتَ مِن صَخَبِهِ وضَجيجِهِ، ولا يُريدُ لكمالٍ وسُعادَ **الاسترسالَ** وحيدَيْنِ في الثَّرثرةِ. إنَّهُ قادمٌ... قادمٌ بكلِّ ما أعطَتْهُ الحياةُ مِن حيويَّةٍ و**عافيةٍ**... قادمٌ ليُشارِكَهُما في الحياةِ، والحبِّ، والسَّعادةِ.

استرسلَ في الكلامِ: اتّسعَ وانبسطَ وتمادى.
العافيةُ: الصّحّةُ التّامّةُ.

قصة

مَرَحُ الشَّبابِ

لَم أَحفَظْ مِنَ التَّعدادِ الأَوَّلِ للأسماءِ العربيةِ سِوى بعضِ ما اعتادَتْ أُذُنايَ سَماعَهُ مِنَ الأَسماءِ المألوفةِ: جِرْمينُ - پولُ - أَحمدُ...

ولَكِنّي لَم أُميِّزْ وُجوهَ أصحابِها، فاهتمامي بِنَفسي وبتَرتيبِ حقيبةِ الرِّحلاتِ قَد شَغَلَني عَن تَفحُّصِ هَذه المجموعةِ مِنَ الشُّبّانِ والشّابّاتِ.

غَيرَ أَنَّ الطَّريقَ إلى مَركزِ المُخيِّمِ طويلٌ، والصُّعودُ شاقٌّ في مُنعَرَجاتِ تِلكَ الرّابيةِ. كأَنَّنا نَسيرُ في خطٍّ لَولبيٍّ لِكَثرةِ المُنعطَفاتِ.

وأَخذَتْ عَينايَ تَجولانِ ببُطءٍ كما تَتحرَّكُ «الوسطةُ» نَفسُها، فتَعْبُرانِ حيناً وَجهاً لَم يُثِرِ اهتمامي، وتَغرقانِ

فِي آخَرَ وَقَدْ أَلْهَبَ حُسنُه **فُضولي**.

جَمالُ هَذه الفتاةِ فَرَسيٌّ على الأَرجحِ... بَل إنَّهُ جَمالٌ أَلمانيٌّ. وذَقنُ هَذا الشّابِّ قادمةٌ مَعَهُ مِن **بلادِ الإغريقِ**. لعَّهُ أَحدُ الفَنّانينَ العِظامِ، فالغيتارُ لا يُفارِقُ يدَيْهِ. ضِحكَةُ هَذا الشّابِّ غريبةٌ كجُثّتِهِ الضَّخمةِ. إنَّهُ يُثرثِرُ مِن غَيرِ انقطاعٍ، تارةً بالفرنسيَّةِ الصّحيحةِ، وتارةً بالإنكليزيَّةِ. ولَكِنَّهُ يَتلفَّظُ ببعضِ الكلامِ العربيِّ... لعلَّهُ أَحدُ اللّبنانيّينَ **المُتَفَرْنجينَ**.

كانَتْ هَذه الخَواطِرُ والفِكَرُ تَشغُلُ فِكري في مَدى ساعةٍ ونِصفٍ. كُنتُ أَلهو بها أحياناً، وأحياناً أُسرِّحُ نَظَري في البعيدِ. هَذه **الرُّبى** أرضٌ مِن بلادي، ولَكِنّي لَم أَتعرَّفْ بها مِن قَبلُ. فيها مِن صخورِ ضَيعتِنا وأشجارِها أشكالٌ وألوانٌ تُعيدُني بالصّورةِ إلى أيّامٍ خَلَتْ، يومَ غادرْتُ القريةَ وفي نَفسي خُطوطُ أحلامٍ

الفُضولُ: تدخُّلُ الإنسانِ في ما لا يعنيه، «الحِشريَّةُ».

بلادُ الإغريقِ: اليونانُ.

المُتَفَرْنِجُ: المُتخلِّقُ بأخلاقِ الفَرَنجِ أيْ سكّانِ أوروبّا.

الرُّبى: مفردها الرَّبوةُ وهي التَّلَّةُ أو الأرضُ المرتفعةُ.

مُبهَمةٍ أَراها تَرتسمُ الآنَ، وفي هَذه السّاعةِ بالذّاتِ.

وتُزاحمُني التّساؤلاتُ قَبلَ الوُصولِ إلى المكانِ المقصودِ. فأَتخيَّلُه بُقعةً مسطّحةً على رأسِ هَذه التَّلةِ. بَل لعلَّهُ قريةٌ، أَو تَجمُّعٌ سَكَنيٌّ شبيهٌ بكُلِّ قريةٍ لبنانيّةٍ. إذاً سيَستقبلونَ الضُّيوفَ الجُدُدَ على قريتِهم وحياتِهم. سيَركُضُ الأولادُ وراءَ مَوكِبِ الغُرباءِ، وسيُحدِّقونَ طويلاً إلى هَذه الوُجوهِ الشُّقرِ والبيضِ.

هَل في هَذه القريةِ مختارٌ، أَو رئيسُ بلديَّةٍ، أَو رئيسُ نادٍ، سيَأتي للتَّرحيبِ بِنا؟ لعلَّهُم يَرفعونَ الزِّينَ والأعلامَ في استقبالِنا؟

وقاطعَ تأمُّلاتي صوتُ المسؤولِ عَنِ المُخيَّمِ، صديقي عادلٍ، وهو يُعلِنُ عَن وُصولِنا. إنَّها إحدى قُرى بلادِ «البَترونِ».

ويُكمِلُ عادلٌ تعليماتِهِ:

ـ ستَكونُ مَهمَّتُنا اليومَ محصورةً في تَنظيمِ أماكِننا في الخِيَمِ المَنصوبةِ، ثمَّ بِتَعرُّفِ البلدةِ بزيارةِ أَحيائِها. وبعدَ الغداءِ، سننتقِلُ إلى مكانِ العملِ حَيثُ نَتعرَّفُ بطبيعةِ المَهمَّةِ الّتي جِئنا لتَنفيذِها.

وخَتَمَ حديثَهُ بكَلِماتٍ **مأثورةٍ** تَركَتِ الابتسامةَ على الوُجوهِ الغريبةِ:

ـ سنَكونُ **قُدوةً**... لاتَنْسَوا أنَّنا جميعاً غُرَباءُ في هَذه القريةِ.

وكأنَّ هَذه الكَلِماتِ قدْ أسقطَتْ مِن رأسي الحُلمَ الجميلَ. نحنُ غُرَباءُ! يَعني أنَّ النّاسَ لَن يَستقبلونا استقبالَ الفاتحينَ، لَن يَقرعوا الأجراسَ، لَن يَعلوَ الهُتافُ وتُدوّيَ الزَّغاريدُ؟

وضَحِكْتُ... ضَحِكْتُ مِن نَفسي هَذه المرَّةَ. أَدرَكْتُ، وأنا اللّبنانيُّ المطبوعُ بحياةِ القريةِ وطبيعتِها وعاداتِها وتقاليدِها، أَدرَكْتُ أنَّني لَن أَشعُرَ بالغُربةِ أبَداً، كما قالَ عادلٌ، ولَن أَلقى الاستقبالَ الّذي حَلَمْتُ به. ولَكِنَّ النّاسَ الّذينَ ينظرونَ إلَيْنا باستغرابٍ، وبَسَماتٍ خَجولةٍ، وتَساؤلاتٍ دهشةٍ، سيَكونونَ، بعدَ ساعاتٍ، بَيْنَنا، يُشاركونَنا في حياتِنا، وسنَكونُ في حياتِهِم،

مأثورةٌ: مشهورةٌ، معروفةٌ.
القُدوةُ: المِثالُ الّذي يَفعلُ النّاسُ فِعلَه.

في بيوتِهِم، في أحاديثِهِم. سنَكونُ معاً؛ فالضِّيافةُ القَرويَّةُ لها فنونٌ وأصولٌ، وعلَيْها يَتبارى اللّبنانيّونَ، ويُفاخِرونَ، ويُبالغونَ.

ـ لَن نَكونَ غُرَباءَ يا عادلُ، أبداً.

ابتسمَ عادلٌ وقالَ:

ـ أَعرِفُ هَذا... أَعرِفُ هَذا تماماً. نحنُ أدرى بأخلاقِ هَؤلاءِ النّاسِ مِنَ الجميعِ. ولَكِنْ كانَ كلامي مِن بابِ التّنبيهِ لا أَكثرَ.

ولَمْ تَمضِ ساعةٌ على وُصولِنا حَتّى كانَ بعضُ الشَّبابِ يَتقدَّمونَ مِنَ المُخيَّمِ، ويُحاولونَ التّعرُّفَ بالمسؤولِ. هُم يَعرِضونَ خِدْماتِهِم: «نحنُ مِن أعضاءِ النّادي... إمكاناتُنا في تَصرُّفِكُم».

ويَتوجَّهُ عادلٌ بلباقتِهِ المعهودةِ شاكراً الشَّبابَ وهو يُذكِّرُهُم:

ـ لَن نُوَفِّرَكُم أبداً يا إخوانُ. ستَكونونَ معَنا دائماً. نحنُ بانتظارِكُم في السَّهَراتِ.

تبارى فريقان (أو أكثرُ): تَسابقا وتَنافسا.

وفَّرَه. هُنا بمعنى استَغْنى عَنْه.

تَوزيعُ أَماكنِ النّومِ لَم يَستغرِقْ غيرَ ساعةٍ. في كلِّ خَيمةٍ أربعةُ أشخاصٍ. هَذا الجَناحُ مُخصَّصٌ لشُّبّانِ المُتطوِّعينَ. الجناحُ الآخَرُ، بَينَ أشجارِ الزّيتونِ، مُخصَّصٌ للفَتياتِ المتطوِّعاتِ. وفي وسَطِ الجَناحَيْنِ فُسحةٌ: إنَّها خَيمةٌ واسعةٌ مُخصَّصةٌ لِلاِستراحةِ والتَّجمُّعِ لنطَّعامِ، صُفَّتْ تحتَها الحجارةُ، وبعضُ المَقاعدِ الخشبيّةِ، وطاولةٌ كبيرةٌ.

عِندَ رأسِ هَذه الطّاولةِ وَقفَ عادلٌ ونادى المُتطوِّعينَ والمُتطوِّعاتِ إلى تَعليماتٍ أُخرى:

- مَن يَرغبْ في مُرافقَتِنا لتَعرُّفِ القريةِ، فعلَيْهِ أَن يَستعدَّ للسَّيرِ بعدَ عَشْرِ دقائقَ.

... وتَحرّكَ المَوْكِبُ. بعضُ الأناشيدِ. بعضُ الأحاديثِ. أَخذَتْ خيوطُ الغُربةِ تَتقطَّعُ وتَتَّصلُ مكانَها خيوطُ التّعارُفِ: جرمينُ... پول... لوسي... روجيه... هَذه نَدينُ... عادلٌ.... هَذا وسامٌ.

وتَتعثَمَ اللِّسانُ **الأَعجميُّ** في لفظِ هَذه الأَحرُفِ

الأعجميُّ: الأجنبيُّ، غيرُ العربيِّ.

العربيَّةِ: وسامٌ. وكَرَّرَتْ نَدينُ الِاسمَ مَرّاتٍ ولَمْ تَصِلْ إلى اللّفظِ الصّحيحِ. فاستَبدَلَتْ به ضِحكةً رنّانةً شاركَها فيها بعضُ زُمَلائِها وزَميلاتِها.

زُرْنا القريةَ كلَّها، أَو هَكذا بَدا لي. ولَكِنَّ أَحداً لَم يَتعرَّفْ شيئاً فيها على الأرجحِ. كانَ التّعارُفُ محصوراً بَينَ أفرادِ المَوكِبِ الصّاحبِ. ومَشهدُ ذاكَ العَجوزِ وهو يَركَبُ دابّتَهُ، وبَقراتُه تُهروِلُ أمامَهُ، قَد شَغَلَ الِانتباهَ. فأَخذَتْ آلاتُ التّصويرِ تَطبعُ في جَوفِها ذاكَ الوجهَ المُتجعِّدَ المجبولَ بغُبارِ الأرضِ. ابنُ الثّمانينَ يَبتسمُ ويَبتسمُ، وآلاتُ التّصويرِ لا تَرتوي مِنهُ. وعَيناهُ تَتيهانِ في هَذه الحياةِ **النّافرةِ** مِن وُجوهِ الشُّبّانِ والصّبايا. عَيناهُ تُسائلانِ قلبَهُ تَحسُّراً: «رَزَقَ اللهُ أيّامَ زَمانٍ... رزَقَ اللهُ أيّامَ الشَّبابِ...».

«هَذا هو بيتُ المُختارِ»، قالَ عادلٌ وهو يُشيرُ إلى بيتٍ مَبنيٍّ بالحجرِ الأبيضِ، تُغَطّيهِ عريشةٌ تَسبَحُ في

النّافرةُ: البارزةُ، الطّامحةُ.

خُضرتِها على السَّطحِ المتَّسِعِ، وتَتدلّى مِن حَناياها العناقيدُ المُلوَّحةُ.

بيتُ المُختارِ يَظهرُ عليْهِ بعضُ آثارِ النِّعمةِ... إنَّهُ وَجيهُ القريةِ.

وأطلَّ الطَّربوشُ الأحمرُ مِن البابِ يَختالُ بَينَ حَوضٍ مِنَ الأَزهارِ: الأَضاليا... الوردِ... المَنثورِ.

وتَقدَّمَ عادلٌ بلَباقةٍ، وانحنى يُسلِّمُ على المُختارِ بإجلالٍ:

- أُعرِّفُكُم يا إخوانُ بمُختارِ الضَّيعةِ.

واهتزَّ الطَّربوشُ فَوقَ الوَجهِ الباسِمِ. وارتَسمَتْ صورتُه في إحدى آلاتِ التّصويرِ، فَمرَّتْ في جسمِ المُختارِ ارتعاشةٌ لذيذةٌ. سيَكونُ معروفاً في بلادِ الأجانبِ مِن خِلالِ هَذه الصُّوَرِ!

وارتفعَ صوتُه بالتّأهيلِ والتّرحيبِ، وعادلٌ يُترجِمُ

الملوَّحةُ: الّتي بَدأتْ تَنضَجُ (عامّيّةٌ).
الوجيهُ: سيّدُ القَومِ، صاحبُ المركزِ المرموقِ.
الإجلالُ: الاحترامُ والتّكريمُ.



الكلامَ بحرارةٍ بالغةٍ أدركَها كلٌّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ مِن خِلالِ الانطِباعاتِ المُرتَسِمةِ على الوجوهِ، وفي نَبَراتِ الأصواتِ.

«المُختارُ... المُختارُ...» وعادَتْ نَدينُ تَتَلعثَمُ بالكلامِ العربيِّ. وتَضحَكُ، ويَضحَكُ معَها الجميعُ.

- قُل للشَّبابِ يا أستاذُ عادلُ إنَّهُم سيَكونونَ غداً مساءً في ضِيافَتي إلى العَشاءِ.

وارتَسمَتْ على شَفَتيَّ ابتسامةٌ فَهِمَ عادلٌ مَعناها، فشارَكَني فيها. وأبلغَ المَوكِبَ عَن رَغبةِ المُختارِ.

وارتَفعَ الصِّياحُ والصَّخَبُ، وعَلَتِ الوُجوهَ أَماراتُ التَّعجُّبِ والدَّهشةِ، وتَردَّدَتْ كَلِماتُ الاِستغرابِ: «غَيرُ معقولٍ!.. جميعُنا مَدعُوّونَ إلى العشاءِ عِندَ المُختارِ؟! غَيرُ معقولٍ!».

وقَطعَ عادلٌ هٰذه الفَوضى بضَحِكِهِ، وقالَ جازماً:

- لا تَتعجَّبوا! هٰذه هي عاداتُنا. سنُلَبّي دعوةَ المُختارِ. وسنُلَبّي دَعَواتٍ أُخرى كثيرةً. الضِّيافةُ في

قُرانا عادةٌ مقدَّسةٌ، لا يَتَخلّى عَنها القَرويُّ حَتّى وإنْ عَضَّتْهُ الحاجةُ.

وارتفَعَ صوتٌ أجنبيٌّ يَقولُ: «عاشَ المُختارُ!» وصَفَّقَ الجميعُ وأَخذوا بالابتعادِ، وعيونُهُم تُحاوِلُ أَن تَلحَظَ مُجدَّداً وجهَ المُختارِ، لتَكشِفَ هَل هو جادٌّ حقّاً في دَعوتِهِ.

وشَغَلَ حديثُ الضِّيافةِ مُعظَمَ طريقِ العَودةِ. قالَتْ جِرمينُ:

- لقَدْ حذَّرونا مِن طعامِ اللّبنانيّينَ. إنَّهُ لذيذٌ جدّاً، ولَكِنَّهُ يُتعِبُ المَعِدةَ بسُرعةٍ.

قالَ پولُ:

- لا بأسَ. سنُجرِّبُ حظَّنا.

وعقَّبَتْ نَدينُ:

- إذا كانَ طعامُ المُختارِ طيّباً كشَكْلِهِ، فَسَنأكُلُ كثيراً.

غداءُ اليومِ الأوّلِ كانَ شَهيّاً جدّاً: الكوسا... الباذنجانُ المَحْشُوُّ. السَّلَطةُ البلديّةُ بالنَّعناعِ... البِطّيخُ.

قالَ عادلٌ:

ـ المعلِّمُ موسى **طاهٍ** ماهرٌ. سيَهتمُّ جيّداً بطعامِنا. أَليسَ هَكذا يا موسى؟

ـ أهلاً بِكُم... أهلاً بِكُم. ما علَيْكُم إلّا أَن تأكُلوا. طعامي طيِّبٌ. ستأكُلونَ أصابعَكُم بَعدَهُ.

وتَرجمَ عادلٌ، وضَحكَ الجميعُ، وضَحكَ موسى، والفرحُ يَملأُ العيونَ والوُجوهَ.

اكتملَ خيطُ التّعارُفِ في الأمسيَةِ الأولى. علَيْنا أَن نَحفظَ جيّداً الأسماءَ. عشرونَ اسماً. خمسةُ أسماءٍ لبنانيَّةٍ **فحَسْبُ**، والباقونَ فرنسيّونَ... ألمانٌ... يونانيٌّ... إنكليزيٌّ... ومصريّانِ.

نَدينُ: طالبةٌ في العُلومِ الاِجتماعيّةِ.

پولُ: طالبٌ في كلّيّةِ الطّبِّ.

جِرمينُ: مُمرِّضةٌ.

أحمدُ: طالبُ حقوقٍ.

الطّاهي: الطّبّاخ.
فحسْبُ: فقطْ.

روجيه: مُهندِسُ بِناءٍ.

وسامٌ: اختصاصُه الفَلسفةُ.

ويَتوالى التَّعدادُ، ويَنتهي كلَّ مَرّةٍ بالتّصفيقِ، وتَتعمَّقُ صِلةُ اللِّقاءِ. لَن يَكونَ أحدٌ غريباً بَعدَ السّاعةِ. كنّا غُرباءَ، كلُّنا أصدقاءُ. أجانبُ، لبنانيّونَ. كلُّنا مُتطوِّعونَ... غداً يَبدأُ العملُ.

كانَتِ المَهمَّةُ الّتي تَكلَّفَ المُتطوِّعونَ القيامَ بها في هَذه القريةِ، تمهيدَ طريقٍ زراعيٍّ يَقعُ في الجانبِ الشَّرقيِّ، حَيثُ تَكثرُ أشجارُ اللَّوزِ والزَّيتونِ.

وتَصفيفُ الحجارةِ عملٌ شاقٌّ على هَذه الأَيدي النّاعمةِ الّتي ما تَعوَّدَتْ يوماً مِثلَ هَذه القساوةِ. ولَكِنَّ الفرحةَ كانَتْ **تَعمُرُ** القُلوبَ. ولَمْ يَشعُرْ أَحدٌ بصُعوبةِ هَذا العملِ. الأَناشيدُ تَتصاعدُ مِن هُنا، الأغاني تُفلِتُ مِن هُناكَ. تأتي سَيّارةُ الشَّحنِ المُحمَّلةُ بالحجارةِ فتُفرِغُ حمولتَها... يَعلو التّصفيقُ... تَتناثرُ الحجارةُ... يَضِجُّ المكانُ.

تَعمُرُ: تملأُ.

مَن يُصدِّقُ؟ العَرقُ يَتصبَّبُ مِنَ الجِباهِ الطَّريَّةِ الّتي أَحذَتْ شمسُ آبَ تَلفَحُها بشَراسةٍ. والجميعُ في هَرْجٍ ومَرْجٍ. كأنَّ لُعبةَ الحجارةِ لُعبةُ الأطفالِ وهُم يَرشُقونَ بالحَصى هدفاً، ومَن يُصِبْ يَتلذَّذْ بالرِّبحِ النَّفسيِّ، لَذّةَ الاِنتصارِ... لَذّةَ الطُّفولةِ.

هَكذا كانَ العملُ في كلِّ صباحٍ، حَتّى تَشتدَّ وَطأةُ الحرِّ عِبدَ الظُّهرِ. ويَقتربُ مَوعِدُ الغداءِ، فيَتجمَّعُ التّعبُ على الوُجوهِ كما يَتجمَّعُ المَوكِبُ في طريقِ العَودةِ. وتَكادُ لا تَسمعُ صوتاً يَعلو، إلّا بعضَ الأنفاسِ المُتعَبةِ المتقطِّعةِ.

ـ غداؤكَ طيِّبٌ يا موسى... طيِّبٌ وشَهيٌّ...

ـ ما أَشهى الطّعامَ بعدَ هَذا التّعبِ والجوعِ.

وقبلَ تَقديمِ الفاكهةِ يَقفُ عادلٌ ليُعلِنَ برنامجَ الفَترةِ التّاليةِ:

الشَّراسةُ. سوءُ الخُلقِ، علاظةُ الطَّبعِ.

الهَرْجُ والمَرْجُ: اختلاطُ النّاسِ وأصواتِهم، ما يَصحَبُه من صخبٍ وفوضى.

- الِاستراحةُ حَتّى الثّالثةِ، ثُمّ نَتوزَّعُ على البيوتِ. سنُساعِدُ الأهاليَ في تصفيفِ أوراقِ التّبغِ. إنَّهُ عملٌ مُمتِعٌ... ستكونُ مناسَبةٌ طيِّبةٌ لتَّعرُّفِ بأخلاقِ النّاسِ وعاداتِهِم وأحاديثِهِم. سيُرافِقُ كلَّ فريقٍ أَحدُ المُتطوّعينَ اللّبنانيّينَ ليُسهِّلَ لكُمُ الصِّلةَ بالنّاسِ. يُترجِمُ... يُحدِّثُ... يُشارِكُ.

وتَمرُّ السّاعاتُ. والحجارةُ تَمتدُّ على الطّريقِ، وتَمتدُّ أوراقُ الدُّخانِ صفوفاً صفوفاً في حيطانِها. وتَتوَثَّقُ عَلاقةُ المُتطوّعينَ والمُتطوّعاتِ بعضِهِم بالبعضِ الآخَرِ. وتَعمُرُ الضِّيافةُ أكثرَ بيوتِ الضَّيعةِ. وتَشتدُّ ثِقةُ النّاسِ بهَؤلاءِ الأجانبِ، وتَغيبُ عَن وُجوهِهِم الِابتساماتُ السّاخرةُ الّتي أطلقوها أوّلَ الأمرِ وهُم يُسائلونَ أنفسَهُم:

«هَل مِنَ المعقولِ أَن يَعملَ هَؤلاءِ في الأرضِ؟ هَل مِنَ المعقولِ أَن تَتقبّلَ الأيادي النّاعمةُ قساوةَ الحجرِ؟...».

وتَتشقّقُ الأكُفُّ، وتَدمى الأَصابعُ، ويَتصبَّبُ

العَرَقُ، وتَحترِقُ الأجسادُ، فيَشعرُ أهلُ القريةِ أنَّ هُناكَ مَن يُشارِكُهُم في حَقيقةِ وجودِهِم، حَقيقةِ ارتباطِ كيانِهِم في هذه التُّربةِ. فيَعُمُّ الفرحُ قريتَهُم، ويَحتفلونَ ويَسهَرونَ.

- هَذه اللَّيلةَ سيُحيي لنا النّادي سهرةً خاصّةً في مَركزِ المُخيَّمِ. وسيَكونُ العَشاءُ طعاماً لبنانيّاً صِرْفاً: تبّولةً، كِبّةً، مَشاويَ. والعَرَقُ، ستَتذوَّقونَ العَرَقَ البَلديَّ الطَّيِّبَ. وستَسْتَمِعونَ إلى الأغاني الشَّعبيّةِ اللّبنانيّةِ.

هَتفَ أحمدُ بلَهجتِهِ المِصريّةِ:

- حَنِسْهَرْ حَتّى الصُّبحْ يا سي عادلْ؟

- حَتّى الصُّبحِ. وتُسْمِعُنا يا أحمدُ أدواراً مِن غناءِ عَبدِ المُطَّلِبِ.

- على عيني.

وتَعمُرُ السّهرةُ: الطّعامُ... الشّرابُ... الغناءُ... الدَّبكةُ على أصواتِ **المِجْوَزِ** و**الطُّبّيلةِ**. سَهرةٌ لا تَنتهي

المجْوزُ: آلةٌ موسيقيّةٌ من القصب.
الطُّبّيلةُ: الدّربكّةُ.

إلّا معَ ساعاتِ الفجرِ. لَن يَستيقظَ المُخيَّمُ باكراً في الغَدِ، فيومُ السّبتِ يومُ راحةٍ للمُتطوِّعينَ. وفي صباحِ الأحَدِ تَكونُ رحلةُ الأُسبوعِ الأوّلِ إلى «طَرابُلسَ» و«الأرزِ». يومانِ يَكفيانِ لِاستعادةِ النّشاطِ.

ـ أنا في زيارةٍ للقريةِ يا عادلُ. أَرغبُ في التّعرُّفِ بعائلاتِها، أُريدُ أَن أَجمعَ بعضَ الإحصاءاتِ عَن محاصيلِها وإنتاجِها الزّراعيِّ.

ـ كما تَشاءُ يا وسامُ. تَمتَّعْ بوَقتِكَ كما تُحبُّ.

ـ سأراكَ عِندَ الظُّهرِ.

كانَتْ بدايةُ الأسبوعِ الثّاني نَشِطةً كما في الأُسبوعِ الأوّلِ. فاستِراحةُ يومَيْنِ قَد أعادَتِ الرّاحةَ إلى الأجسامِ، وكانَتْ رِحلةُ الأحَدِ باعثاً لِبَهجةِ النّفوسِ.

زيارةُ «طَرابُلسَ»، وتَعرُّفُ أسواقِها وقَلعتِها، جَعَلانا نَقفِزُ عَبْرَ الزّمنِ إلى الماضي، كما كُنّا نَقفِزُ فوقَ الحجارةِ الضَّخمةِ، ونحنُ نُصغي إلى هَذا الدّليلِ الّذي يَشرَحُ ويَشرَحُ مِن غَيرِ انقطاعٍ:

ـ هَذه القلعةُ بَناها فُلانٌ... ورَمَّمَها فُلانٌ... مرَّتْ

علَيْها شعوبٌ كثيرةٌ.

لَم تَكُنْ هَذه الأحاديثُ تُثيرُ اهتمامي، فقَدْ حَفِظْتُ الكثيرَ مِنْها في كتابِ التّاريخِ. كانَ هَمّي مُنصَبّاً عى تَلمُّسِ ذَلكَ التّاريخِ مِن مُناجاةِ الحجارةِ نفسِها: الرّسومِ، والأشكالِ.

وسَمعْتُ صوتَ نَدينَ وهِي تَضحكُ، وقَدْ مالَتْ إلى ناحِيَتي تَسألُني:

ـ أَراكَ مُعجَباً بمُشاهداتِكَ. هَل هِي المرَّةُ الأولى الّتي تَزورُ فيها القَلعةَ؟

ـ لقَدْ زُرتُها مِنْ قبلُ في الكُتبِ.

ورنَّتْ ضِحكتُها بَينَ أرجاءِ القَلعةِ، وانعكسَتْ على الحجارةِ كأنّها تَحفِرُ اسمَها فوقَ الغُبارِ المُتراكِمِ على هَذه الجُدرانِ.

ـ كلامُكَ كلامُ شُعَراءَ.

ـ المكانُ يُثيرُ فيَّ هَذه الرّوحَ الشّاعريّةَ.

وارتسمَتْ على وَجهِها بَسمةٌ جديدةٌ. وفَتحَتْ أمامي خريطةً صغيرةً كانَتْ تَعتمِدُها دليلاً لها

يُرشدُها إلى جغرافيةِ «لُبنانَ». ثُمَّ أشارَتْ بإصبَعِها إلى بُقعةٍ سوداءَ فوقَ سطحٍ أصفرَ مُمتدٍّ مِنَ الشِّمال إلى الجَنوبِ:

ـ أليسَتْ هٰذه قَلعةَ «بَعْلبكّ»؟

ـ بَلى.

ـ أيُّهما أعظمُ: «بَعْلبكُّ»، أم «طَرابلُسُ»؟

ـ لكلٍّ مِنَ الاثنَيْنِ طابَعُها المميَّزُ. غَيرَ أنَّ «بَعْلبكَّ» تَبقى الأفضلَ بالنِّسبةِ إليّ.

ـ هٰذا ما أعتقِدُه أنا أيضاً.

هَل ستَزورينَ «بَعْلبكَّ»؟

ـ سأُحاولُ. فقَدْ نُمضي أسبوعاً أو أكثرَ بعدَ انتهاءِ المخيَّمِ نَزورُ فيهِ أهمَّ المَواقعِ الأثَريّةِ.

ـ سأدعوكُم لزيارةِ مَنطِقةٍ أُخرى، مَنطِقةٍ جميلةٍ جدّاً.

وأشرْتُ على الخريطةِ إلى مَنطِقةِ الجَنوبِ:

ـ هٰذه «صورُ». قَلعتُها قديمةٌ جدّاً ورائعةٌ. وهٰذه «صَيدا» وقَلعتُها البَحريّةُ.

ـ هَل بإمكانِنا مُشاهدتُهما في يومٍ واحدٍ؟

ـ حتماً، نُمضي جزءاً مِنَ النّهارِ في زيارةِ أسواقِ المدينتَيْنِ.

ـ أتَمنّى هَذا.

قَطعَ الحديثَ صوتُ عادلٍ وهو يُعلِنَ انتهاءَ الزّيارةِ. فقَدْ قَرُبَ وقتُ الظُّهرِ. عيَنْنا بزيارةِ «الأرزِ»، والغداءُ سيَكونُ بقُربِ نبعِ «مارْ سركيسَ».

لَم تَكُنْ هَذه زيارتي الأولى «للأَرزِ». فقَدْ قَصَدْتُه صَيفاً، كما قَصَدْتُه متزلّجاً. ولَكِنَّ منظرَ الضَّبابِ الفِضّيّ في وادِي «قنّوبينَ»، وقَدِ انعكَسَتْ علَيْهِ شمسُ آبَ فأخذَتْ تُبدِّلُ في ألوانِهِ، قَد ألَّبَ في رأسي التّأمُّلَ، وأَطلَقَ النّفسَ مِن عِقالِها، فسَبحْتُ في تَخيُّلاتٍ بعيدةٍ، بعيدةٍ، تُفتّشُ عَن ربَّةِ الجَمالِ.

وكأنَّ **طَيفَها** قدِ ارتَسمَ أمامي وهِي تَبتسمُ:

ـ أراكَ دائماً في تأمُّلٍ.

الطّيفُ: الخيالُ الطّائفُ في النّومِ أو عندَ الشُّرودِ.

ـ الجَمالُ يَفرِضُ وجودَهُ على نَفْسي.

وضَحكَتْ نَدينُ. وكأنَّ الكَلِماتِ قَد لامَسَتْ قَلبَها، فتساءَلَتْ بِعُنجِها ولُثغَتِها الفرنسيّةِ:

ـ وأيَّ جَمالٍ تَقصِدُ؟

ـ الجَمال كيفَما وُجِدَ، في الوجهِ أو على الصَّفحةِ الضَّبابيّةِ.

ـ ولَكِنَّ شمسَكُم ستُحرِقُ بسهولةٍ ذَلكَ الضَّبابَ.

ـ وستُكسِبُ الوجهَ جَمالاً شرقيّاً رائعاً.

وضَحكَتْ نَدينُ... ضَحكَتْ مِن كلِّ كِيانِها. وأخذَتْ تَتأمَّلُ شجرةً عاليةً مِن شَجراتِ الأرزِ.

ـ لقَدْ أُغرِمَ شاعرُنا لامَرتينُ بأرزِكُم وأرضِكُم وبلادِكُم.

ـ وبالعيشِ هُنا أيضاً.

ـ لَن يَكونَ لامَرتينُ وحيداً في هَذا الغرامِ، فبلادُكُم رائعةٌ... إنَّها رائعةٌ!

اللُّثغةُ: النُّطقُ بالسّينِ كالثّاءِ، أو بالرّاءِ كالغينِ أو كالياءِ أو كاللّامِ، إلى غيرِ هَذا.

وعَلا الضَّحِكُ... الضَّحِكُ الّذي يَجلِبُ الرُّفقاءَ... الضَّحِكُ كأنَّهُ حبّاتُ القمحِ تَحتمِعُ عَلَيْها الطّيورُ النَّهِمةُ إلى الطّعامِ. الضَّحِكُ تَتقاطرُ عليْهِ القلوبُ الشّابَّةُ **التّوّاقةُ** إلى السّعادةِ.

قالَ لي عادلٌ:

- أَراكَ تَنصرِفُ إلى القراءةِ على غَيرِ عادتِكَ في الأسبوعِ الأوّلِ يا وِسامُ.

- أَرغَبُ في بعضِ الرّاحةِ. فالحَرُّ قويٌّ هَذا النّهارَ.

- لا تَنسَ هَذا المساءَ، فإنّنا مَدعوّونَ إلى مِشوارِ تبّولةٍ عندَ نبعِ القريةِ.

- ومَن صاحبُ الدَّعوةِ هَذا اليومَ؟

- رئيسُ النّادي.

- إنَّهُ شابٌّ طيّبٌ ونشيطٌ.

- هَل تَقومُ مَعي بزيارتِهِ؟

- رَغبةُ القراءةِ تَتغلَّبُ علَيّ. أَودُّ الاستراحةَ.

- كما تَشاءُ.

تتقاطرُ: تتوافدُ وتتتابعُ.

التّوّاقةُ: المشتاقةُ.

كانَتْ رَغبةٌ مبهَمةٌ خفيّةٌ تمرُّ في داخلي. لَم أَستطِعْ تَحديدَ هَذا الشّعورِ الغريبِ. كأنّني أَرغَبُ في التّذكُّرِ، في الحُلمِ، في استعادةِ أحداثِ الأمسِ.

ـ ماذا في جَعبةِ شاعري هَذا اليومَ؟

وانتفضَ الكتابُ بَينَ يديَّ. إنّها نَدينُ تَنتصبُ بقامتِها أمامي، إنّها بكُلِّ أناقةِ الفتاةِ الباريسيّةِ، ببَسمتِها السّاحرةِ، بعَينَيْها السّابحتَيْنِ في أغوارِ البحارِ. هَذه نَدينُ تَنثُرُ خُصُلاتِ شَعرِها الذّهبيِّ على كَتِفَيْها. هِي هُنا بكُلِّ كِيانِها تَتحرّكُ... تَتكلّمُ... تَنبِضُ بِالحياةِ. وأنا ساكتٌ... صامتٌ...

ـ أَلَمْ يَسمعْ شاعري التّحيّةَ؟

وضَحكَتْ، واستَغرقَتْ بالضّحِكِ.

ـ تُريدينَ أَن أَكونَ شاعرَكِ ولَمْ أَقُلِ الشِّعرَ يوماً؟

ـ في وَجهِكَ تَرتسِمُ الكَلِماتُ. في عَينَيْكَ... في حَركاتِكَ...

مبهمةٌ: غيرُ واضحةٍ.
الجعبةُ: حقيبةٌ صغيرةٌ.
الأغوارُ: الأعماقُ.

كانَتْ تَتكَلَّمُ والخواطِرُ تَتزاحمُ في رأسي.

هَذه هِي الفتاةُ الأجنبيَّةُ. هَذه هِي حُرّيَّتُها. تُعبِّرُ عَمّا في داخِلِها بعَفْويَّةٍ وصِدقٍ، مِن غَيرِ تَحفُّظٍ. هَذه هِي حياتُها. ولِمَ الخَجلُ، ولِمَ الحَذرُ؟ حياتُها مُلكُها، إرادتُها مُلكُها، فِكرُها مُلكُها.

وضَحكْتُ.

ـ أَراكِ أنتِ الشّاعرةَ، وتُريدينَ إلصاقَ التُّهمةِ بي؟

وكأنَّها لَم تَسمعْ كَلِماتي. لَم تُعلِّقْ بكَلِمةٍ واحدةٍ. مَدَّتْ يدَها تَدعوني إلى النّهوضِ.

ـ أَتُرافقُني في مِشوارٍ قصيرٍ عَبْرَ شوارعِ البَلدةِ؟

أَفرَغْنا ما في جَعبتِنا مِن كلامٍ. أَحاديثُ لَم تَنتهِ. أَحاديثُ لَن تَنتهيَ. ساعاتٌ... أيّامُ المخيَّمِ كلُّها أَحاديثُ، أخبارٌ سارَّةٌ، ضاحكةٌ، جادَّةٌ... أَبحاثٌ مُناقَشةٌ، حِوارٌ. أنتُمُ الشّرقيّينَ... أحلامُكُم... عاداتُكُم... تقاليدُكُم.

أنتُمُ الغَربيّينَ، حضارتُكُم... حُرِّيَّتُكُم... علومُكُم... أنتُم... نَحنُ. تحتَ كلِّ حجرٍ على الطّريقِ

الزّراعيِّ **المرصوفِ**. أنا... أنتَ... نَحنُ... أنتُم.

وراءَ كلِّ شجرةِ لوزٍ مُثقَلةٍ بحِملِها النّاضجِ تَختبئُ كَلِماتٌ عَن بلادِكُم وبلادِنا.

على جَنَباتِ الطَّريقِ تَسرَحُ العيونُ، تَغرَقُ في تموُّجاتِ البحرِ، أو تُصادِمُ سُمرةَ الصُّخورِ. أنا وأنتِ...

ـ كلُّ شيءٍ طيِّبٌ في بلادِكُم. في أرضِكُم. الهواءُ، الطّبيعةُ، الشَّمسُ، الماءُ، النَّسماتُ، النّاسُ. ما أطيبَ نفوسَ هَؤلاءِ القَومِ. ما أَكرمَ ديارَهُم. هُم بَينَنا في مَرَحِنا، في ابتساماتِنا، في أُمنيّاتِنا.

وتُثرثِرُ نَدينُ بفَرحٍ... بفَرحٍ لا يَنتهي.

ـ هَل ستَزورُ «فَرَنسا»؟

ـ مَتى سَمحَتْ لِيَ الظُّروفُ فلَنْ أتأخَّرَ.

ـ بَل ستَزورُنا. أنا مُتيقِّنةٌ أنّكَ ستَزورُنا.

لَهجتُها الثّابتةُ كانَتْ تَبعثُ فيَّ المَرحَ والابتسامة

المرصوفُ: المضمومةُ حجارتُه بعضُها إلى بَعضٍ.
تَيقَّنَ الأمرَ: عَلِمَهُ وتَحقَّقَهُ وأكَّدَهُ.

المَرِحةَ، فأَغرقُ معَها في نقاشٍ. ويتجدّدُ الحِوارُ. نَحنُ وأنتُم. هَكذا تَقفِزُ ساعاتُ الأسبوعِ الثّاني مِن غَيرِ تَوقُّفٍ أَوِ استقرارٍ.

هَل ستَكونُ اللَّيلةُ ليلةَ الوَداعِ؟ هَل غداً يَنتهي المخيّمُ؟

أَهلُ القريةِ يَستعِدّونَ لسَهرةٍ حافلةٍ هَذه اللَّيلةَ. سيَذبحُ المُختارُ خروفاً في المناسَبةِ. الشَّبابُ يَستعِدّونَ. الصَّبايا **يَرفُلْنَ** بِأحسنِ الثّيابِ. أُمسيَّةُ هَذا اليومِ حركةٌ ونشاطٌ في كلِّ مكانٍ: في الطّريقِ، في البيوتِ.

اللَّيلةَ سنُتوِّجُ لقاءَنا بعهدٍ صادقٍ. الأَجانبُ لَم يَبقَوْا أَجانبَ. إنَّهُم هُنا. في أرضِنا تَركوا جزءاً مِن كِيانِهِم. عَرَقُهم فوقَ تلكَ الحجارةِ. امتزَجَ بالتُّرابِ.

قَطَراتٌ مِن دمائِهِم اختلَطَتْ بغُبارِ الطُّرقِ. أنفاسُهُمُ احترقَتْ في هواءِ لَهَبِ الشّرقِ. جُلودُهُمُ اصطبغَتْ علَيْها خيوطُ الشّمسِ. احترَقوا حتّى في قلوبِهِم. **ونَضِجَتِ**

رفل: جرَّ ذيلَهُ وتَبختر في مشيته.

نضجَ الثّمرُ، ينضجُ: أدركَ وبَلغَ وطابَ أكلُه؛ وهُنا استعارَها الكاتبُ للنّفوسِ.

النّفوسُ، وصَفّقَتِ الجوانحُ، وتكاتفَتِ الأيدي، واختلطَتِ الأصواتُ. الغناءُ... الرّقصُ... المَرَحُ.

لَيلُ المَرَحِ لَم يَنتهِ إلّا عندَ عَتَباتِ الصّباحِ.

ـ بعدَ ساعاتٍ سنَكونُ في طريقِ العَودةِ. لَستُ راغباً في النّومِ يا عادلُ. سنَنامُ طويلاً فيما بَعدُ. أُحبُّ أَن أَستقبلَ الشّمسَ وعَيناي تَتحدَّيانِ شُعاعَها الصّباحيّ النّاعسَ. سأَبقى هُنا تحتَ الخَيمةِ الكبيرةِ أُحادثُ المَقاعدَ. في كلِّ مَقعدٍ يَنبُتُ إنسانٌ يُحدِّثُ، يُثرثِرُ، يُناقِشُ.

پولُ يَطرحُ نظريَّةً في جِراحةِ القَسِ. قالَتْ جِرمينُ:

ـ دَعْكَ مِنَ القلبِ المجروحِ. هاتِ حدِّثْنا في موضوعٍ آخَرَ. أنا وأنتَ مُتعبانِ مِن أحاديثِ الجِراحةِ والتّمريضِ.

روجيه يَضعُ خرائطَ جديدةً. يُصوِّرُ. يَرسُمُ. طبعُهُ العلميُّ لا يُبعِدُه عَنِ الفُكاهةِ:

ـ انظروا إلى هَذا البناءِ الكاريكاتوريِّ.

ويَغيبُ أَحمدُ في ضِحكةٍ طويلةٍ:

ـ أَدعوكَ إلى وضعِ رسومٍ حديثةٍ للأَهرامِ، تَكونُ أَكثرَ مُناسَبةً لعَصرِ.

ويَعلو الضّحِكُ في كلِّ مكانٍ.

على هَذا المَقعدِ هُنا تُثرثِرُ نَدينُ. مَقعدُها مِثلُها، يُثرثِرُ، يُناقِشُ، يُحدِّثُ مِن غَيرِ انقطاعٍ. هَذا المَقعدُ يَرتسمُ إنساناً، خيطاً مِن خيوطِ الشّمسِ المُبكِّرَةِ في هَذا الصّباحِ.

إنَّها نَدينُ.

ـ وأنتِ ساهرةٌ أيضاً؟

ـ لَم أَقدِرْ على النّومِ. إحساسٌ غريبٌ يَشدُّني إلى هَذه المَقاعدِ. إلى هَذا المَقعدِ بالذّاتِ.

ـ ما أَصعبَ الغدَ، ما أَصعبَ الفِراقَ.

وكأنَّها لَم تَسمَعْ. كأنَّ كَلِماتي أَطلقْتُها لرّيحِ، للأَجنحةِ الّتي ستَحمِلُ نَدينَ بعدَ أُسبوعٍ إلى وَطَنِها، إلى ما وراءَ الغدِ حَيثُ تَبعثَرُ الأحلامُ، **تَندثِرُ** في الهواءِ.

تندثرُ: تَمّحي، تزولُ.

خيوطٌ جمعَها مَرَحُ الشّبابِ... حاكَتْها أيدي القَدَرِ لقاءاتٍ حُلوةً.

كَلِمةٌ واحدةٌ قالَتْها نَدينُ ويَدُها تَغرقُ بَينَ يديَّ:

- لقَدْ عَرفْتُ الحبَّ.

وتصبَّبتْ عيناي في شَفتَيْها المُتَلعثِمَتَيْنِ وقُلتُ:

وأنا أيضاً. لقَدْ عَرفْتُ الحبَّ. سنَلتقي وراءَ تلكَ الأجنحةِ المُنبسِطةِ للرّيحِ. سنَلتقي.

حاكَ: نَسَجَ، خاطَ.

قصة

صَيْدُ الخنزيرِ البَرّيِّ

بعضُ الطَّرَقاتِ الخفيفةِ جَعلَ عَيبيَّ تتنبّهانِ مِن غَفوةٍ قصيرةٍ لَم تَدُمْ أكثرَ مِن ساعةٍ.

ـ هِيهِ! أما تَزالُ نائماً أيُّها الصَّيّادُ النّشيطُ؟ هَيّا قُمْ وافتَحِ البابَ!... لقَدْ تأخَّرْنا.

وقَفزتُ نافضاً الغِطاءَ عَنّي كمَنْ مَسَّهُ تَيّارٌ كهرَبائيٌّ. لا أُريدُ أن أكونَ صيّاداً كسولاً، ولا أُريدُ أن يَهزأَ بي أحدٌ مِن رُفقاءِ الصّيدِ.

فَتحْتُ البابَ فبادَرَني زيادٌ قائلاً:

ـ أما زِلتَ نائماً؟ هَيّا أسرِعْ في تحضيرِ نفسِكَ. قَد نتأخَّرُ عَنِ المَوعِدِ.

هيه: كلمةٌ تُقالُ لشيءٍ يُطرَدُ؛ وهي أيضاً كلمةُ استزادةٍ أي طلبِ زيادةٍ.

لَم أَعِ كيفَ ارتدَيْتُ ثِيابي وحَمَلْتُ بُندقيَّةَ الصَّيدِ وبعضَ الطَّعامِ. ولَمْ تَمضِ دقائقُ حتّى صِرتُ مُتأهِّباً عندَ بابَ السّيّارةِ.

ـ هَل أنهَيْتَ كلَّ شيءٍ؟

ـ هَيّا. لقَدِ انتهى كلُّ شيءٍ.

كانَ هَمّي الأوَّلُ أَن أُبرِّرَ أسبابَ تأخُّري في النّومِ. قُلتُ وأنا أَفرُكُ يَديَّ:

ـ لَم أَنَمْ هَذه اللّيلةَ. لقَدْ أصابَني أرَقٌ شديدٌ. أَخذَتِ الصُّورُ تَتلاحقُ في رأسي، فشَغَلَتْني حَتّى استَبدَّ بي قَلَقٌ. فكانَتْ خَيالاتُ الأشجارِ والأَوديةِ تُلوِّنُ مُخيِّلتي. الحقيقةُ أنَّني لَم أَنَمْ.

وضَحِكَ زيادٌ ضِحكةَ الواثِقِ بِنفسِهِ. باتَ مِثلُ هَذه الفِكَرِ لا يُقلِقُه. إنَّه شابٌّ **تمرَّسَ بحياةِ** الصَّيدِ على أنواعِهِ، أمّا أنا فما أَزالُ هاوياً أُلاحِقُ صِغارَ الطّيورِ، أو تِلكَ الّتي تُحِبُّ جيرتَنا في بساتينِ الضَّيعةِ وحُقولِها.

الأرَقُ: ذَهابُ النّومِ وعدمُ القُدرةِ عليْهِ.

تمرَّسَ بالحياةِ: إحتكَّ بها ومارسَها وخَبِرَها.

لَم أَعتَدْ بعدُ صَيدَ الحِجالِ في الجُرودِ وبَينَ الصّخورِ، ولَم أُهاجِمْ أعماقَ الأَوديةِ وأغمارَ الغاباتِ. لِذا كانَتْ رِحلةُ اليومِ مَحطَّةً جديدةً في هوايتي.

قُلتُ قاطعاً الصَّمتَ البارِدَ في هَذه السّاعةِ المُبَكِّرةِ مِنَ الصّباحِ:

ـ ما رأيُكَ؟ هَل نُوفَّقُ اليومَ؟

ـ إنْ شاءَ اللّهُ! إنْ شاءَ اللّهُ سيَكونُ يوماً حافلاً.

ـ مَتى نَصلُ مزرعةَ «الصّويرةِ»؟

ـ بعدَ ساعةٍ على الأَكثرِ.

ونَظرْتُ إلى السّاعةِ لأوَّلِ مرّةٍ وكأنَّني قَد نَسيتُها، فإذا هِي لَم تُجاوِزِ الثّانيةَ بعدَ مُنتصَفِ اللَّيلِ.

ـ إذاً في الثّالثةِ نَكونُ عندَ العمِّ أبي رشيدٍ. لا علَيْكَ، لَم نَتأخَّرْ، فهو الوقتُ الّذي حدَّدَهُ لنا.

كانَتْ أيّامُ تِشرينَ قَد حَملَتْ برودةً مُبكِّرةً إلى هَذه النّاحيةِ الجليَّةِ مِن مُرتفعاتِ «جبلِ الرّيحانِ». ولَكنَّ القمرَ المُرتمِيَ عَلى رؤوسِ الهِضابِ قدْ أَكسَبَ

الأحواءَ **روعةً** و**بهاءً**، فأَحسَسْنا بنَشْوةِ الشّبابِ تَتدفَّقُ في أعماقِنا، فاستَرْسَلْنا في أُغنيةٍ بلديَّةٍ بَعثَتْ فينا الدِّفءَ.

وكانَتِ النَّغَماتُ تَختَلِطُ بشَخيرِ السّيّارةِ العجوزِ فتَملأُ خَبَاتِ الطّريقِ **عَربدةً** وضجيجاً.

هَذه هِي «الصّويرةُ». وها هو بيتُ أبي رشيدٍ مُشْعَلٌ بضَوءِ سِراجٍ. أَخذَتِ الكلابُ تَستقبِلُنا فتَملأُ بنُباحِها أرجاءَ المزرعةِ. ولكِنْ لا ضَيرَ على بيوتِها العَشَرةِ، فقَدِ اعتادَتْ مثلَ هَذه الأصواتِ. وسُكّانُها قد باشَروا بالنّهوضِ في هَده السّاعةِ المُبكِّرةِ. وتَحوَّلَ صوتُ الكلابِ إلى هَريرٍ مُتقطِّعٍ لمّا نَزَلْنا مِنَ السّيّارةِ أمامَ البيتِ العتيقِ.

وكأنَّ غريزةَ الكلابِ قدْ أَرشدَتْها إلى هُويّةِ القادمَيْنِ، فأَخذَ بعضُها يَدورُ حَولَنا، والآخرُ يَقفِزُ ويَضرِبُ الأرضَ هُنا وهُناكَ. وفُتِحَ البابُ...

الرّوعةُ: المَسحةُ مِن الجَمالِ.
البهاءُ: الحُسْنُ والظَّرفُ.
العربدةُ: سوءُ الخُلُقِ، وهنا استعارَها الكاتبُ للسّيارةِ.

ـ أهلاً بالشّبابِ، أهلاً! جيتو عالوقْتْ.

ـ كَيفَ أَصبَحْتَ يا عمُّ أبو رشيدٍ؟

ـ الحَمدُ للهِ، بخَيرٍ. إنْ شاءَ اللهُ سيَكونُ يوماً موفَّقاً.

ـ إنْ شاءَ اللهُ.

ودَعانا إلى قهوةٍ عربيّةٍ قبلَ الرّحيلِ، فارتَشَفْناها بَعضَ الشّرعةِ رَيثَما تَكتمِلُ عُدّةُ الرّحيلِ.

قالَ أبو رشيدٍ:

ـ سنَبدأُ السّيرَ على بَرَكةِ اللهِ، وسنَمُرُّ على بيتِ أَخي أبي سليمٍ لَعلّهُ يُرافقُنا.

وهَكذا كانَ.

وسارَ المَوكِبُ باتِّجاهِ طَرَفِ المزرعةِ حَيثُ **مَعبورُ** الذّئابِ كَما يُسمّونَهُ. ويَقعُ هَذا المعبورُ على فوهَةِ وادٍ بعيدِ الغَورِ، تَتشابَكُ فيهِ أشجارٌ حَرَجيَّةٌ كثيفةٌ تَكادُ تَمحو أشكالَ الصّخورِ فيهِ. هو مَوطِنُ الحيواناتِ البَرّيّةِ المفتَرِسةِ.

أَخذَ الرّجلانِ يَرويانِ قِصصاً عَنِ الذّئابِ ومُلاحَقتِها

المعبورُ: مكانُ العُبورِ، المَمرُّ.

القُطعانَ، وعَن مُطارَدتِهِما لها. ثُمَّ قالَ أبو سليم:

ـ مُنذُ يومَيْنِ شاهدَ أحَدُ الرُّعيانِ ضَبعاً في الطَّرفِ الآخَرِ مِنَ الوادي. ولَعلَّ الصّقيعَ في «حلِ الشّيخِ» قدْ أبعدَ القطيعَ فالتجأَتْ إلى هَذه الأحراجِ.

كانَ صَمتُ اللّيلِ الرّهيبُ تُعكِّرُه هَذه الثّرثراتُ، وطَقطَقاتُ الحجارةِ النّافرةِ تحتَ أرجُلِ الصّيّادينَ. ولَكِنَّها تَمحو مِنَ الذِّهنِ مَوقِفَ **الوَجَلِ** أمامَ رَهبةِ الوادي، وذِكرِ الضِّباعِ والذّئابِ والخنازيرِ البرّيّةِ.

كُنتُ قدْ حَضَّرْتُ الجفتَ بخرطوشتَيْنِ مَحشوَّتَيْنِ بالرّصاصِ. إذاً لِمَ الخوفُ، ولِمَ لا أُشارِكُ في الحديثِ؟

سألْتُ أبا رشيدٍ بشيءٍ مِنَ الفُضولِ:

ـ هَل سأَرى الخِنزيرَ البَرّيَّ يا تُرى؟

فضَحكَ العمُّ ضِحكةً تَرِنُّ في نَبَراتِها الثّقةُ بالنّفسِ وقالَ:

ـ نعمْ ستَراهُ! لَن نُغادِرَ هَذا الواديَ إلّا ومعَنا واحدٌ مِنها.

الوَجَلُ: الخوفُ.

لَم تَكُنْ خيوطُ الفجرِ قَد **تسرَّبَتْ** بعدُ إلى تِلكَ الحَنَباتِ المُظلِمةِ. وكانَتِ العَتمةُ لا تَزالُ تُغلِّفُ المكانَ بوِشاحٍ شفّافٍ يَترُكُ خَلفَهُ ظلالاً وخَيالاتٍ، كأنّها تِلكَ الظِّلالُ والخَيالاتُ الّتي طالَما أقلقَتْ غَفوتي القصيرةَ اللّيلةَ الماضيةَ. فأَحسسْتُ ببَعضِ النُّعاسِ البارِدِ، ولَكِنَّ صوتَ أبي رشيدٍ قَد نَبَّهَني وهو يُعلِنُ توقُّفَ السَّيرِ، والبَدءَ بتَوزيعِ الأدوارِ.

ـ هُناكَ، على بُعدِ مئةِ مترٍ، صخرةٌ عاليةٌ جدّاً تُشرِفُ على أَحدِ المَمرّاتِ الّتي يَسلُكُها قطيعُ الخنازيرِ. ولَكِنْ على الصَّيّادِ الّذي سيَكمُنُ فيها أَن يَكونَ حاذقاً سريعَ التّصويبِ، لأنَّ مجالَ الرّؤيةِ ضيِّقٌ، والقطيعُ يَمرُّ سريعاً ولا يَستقِرُّ.

«في النّاحيةِ الثّانيةِ شجرةُ سِنديانٍ ضخمةٌ، مِنَ العادةِ أن تَأتيَها الخنازيرُ فتَرعى تحتَها وتَحفُرَ الأرضَ. والمَكمَنُ قُربَها خطيرٌ إذا لَم يَتصرَّفِ الصَّيّادُ **بحُنكةٍ**

تسرَّب: دخل.

الحُنكةُ: الحكمةُ والخبرةُ في التّصرّفِ النّاتجةُ من تجاربِ الدّهرِ.

ووَعْيٍ. وإذا وَقعَ أيُّ خطأٍ في التّصويبِ فقَدْ تَرتَدُّ الخنازيرُ الشَّرِسةُ إلَيْهِ وتَضرِبُه بأنيابِها القاتلةِ. لِذا سأَترُكُ تِلكَ النّاحيةَ لي.

«أمّا أخي فإنَّهُ يَعلَمُ مكانَهُ، وهو على بُعدِ خَمسِ مئةِ مترٍ تقريباً، هُناكَ، في عُمقِ الغابةِ، حَيثُ يَمرُّ القطيعُ إمّا قادماً إلى النّاحيةِ، وإمّا هارباً إذا لَم نُوفَّقْ نحنُ به. وسأَتدبَّرُ أمرَ الكلابِ، فَمَن أَدعَها تَتحرَّكُ أو تُصدِرُ أصواتاً تُنبِّهُ الخنازيرَ فتَطرُدُها. سأُطلِقُها في الوقتِ المُناسِبِ. علَيْنا التَّيقُّظُ معَ انبلاجِ الضَّوءِ».

كانَتْ هَذه التَّعليماتُ تَصدُرُ مِن فمِهِ كأنَّها الخِططُ الحربيَّةُ لمعركةٍ حاسمةٍ يَتقرَّرُ فيها انتصارٌ عظيمٌ لسُمعةِ الصَّيّادينَ وشُهرتِهِم. ولَكِنَّها لا تَخلو مِن بعضِ الغَرابةِ بالنِّسبةِ إليَّ.

غَيرَ أنَّ نَشوةَ الصَّيدِ قد انبعثَتْ في جسدي، فدَبَّتْ فيَّ حرارةُ الشَّوقِ إلى تِلكَ اللَّحظةِ الّتي سأُطلِقُ فيها النّارَ وأُسجِّلُ حدَثاً جديداً في حياتي.

انبلجَ الضّوءُ: أشرقَ وظهرَ.

قالَ زيادٌ:

ـ سنَكونُ نحنُ عندَ الصَّخرةِ... إلى العملِ...

كأنَّ المسافةَ القصيرةَ الّتي تَفصِلُنا عَن مكانِنا قَفزةٌ لا تَتعدّى الخُطوةَ. وها نحنُ نَستكشِفُ عَن مَوقِعِنا ونَتهيّأُ.

بعدَ صمتٍ قليلٍ شَعرْتُ بحاجةٍ إلى الثَّرثرةِ، فاختَرْتُ أَجملَ الأمانيِّ عِندي في مثلِ هَذه السّاعةِ، وقُلتُ لصَديقي:

ـ ما رأيُكَ لَو مرَّتِ الخنازيرُ مِن أمامِنا وكُنّا نحنُ صَيّادَيْها؟

ـ ولِمَ لا! سنَحمِلُ الخِنزيرَ إلى القَريةِ، ونَجولُ به. اللهُ! كَم سيَكونُ يوماً جميلاً.

وكُنّا نَقطعُ الثَّرثرةَ كُلَّما سَمِعْنا **خَشخشاتٍ** قريبةً، وكأنَّ الخِنزيرَ سيَقفِزُ بَينَ لحظةٍ وأُخرى مِن هُنا أَو مِن هُناكَ. فتَزدادُ ضَرَباتُ قلبي، وتَرتفعُ حرارةُ جَسدي، وأُهيِّئُ البُندقيّةَ. وتَمرُّ الخَيالاتُ في تِلكَ النُّقطةِ

الخَشخشاتُ: الأصواتُ النّاتجةُ مِنَ الاحتكاكِ.

بالذّاتِ، في المكانِ الّذي حَدَّدَهُ العمُّ أبو رشيدٍ. ولَكِنَّ الوقتَ لَم يَحِنْ بَعدُ... ونَعودُ إلى الثّرثرةِ.

فجأةً سَمِعْنا نُباحَ أَحدِ الكلابِ، فقَفَزَ قلبي بَينَ يديَّ. قالَ زيادٌ:

ـ هَيّا، انتبِهْ!.. الكلابُ قَد أخذَتِ الرّيحَ.

ولَكِنَّ صوتَ أبي رشيدٍ قدْ خنقَ صوتَ الكلبِ **المُتطفّلِ** فأَسكَتَهُ. فعُدْنا إلى الانتظارِ.

أَخذَتْ خيوطُ الشّمسِ تُزيحُ عَنِ الغابةِ عِبءَ الظّلامِ. وظَهرَتِ المعابرُ الضَّيِّقةُ كلُّها. وبَدا لنا المَمرُّ الّذي نُراقبُه، بوُضوحٍ تامٍّ. كأنَّ طولَهُ لا يَتعدّى الثّلاثةَ أمتارٍ على التّقديرِ. إذْ سُرعانَ ما تَحجُبُ الطّريقَ أشجارُ السِّنديانِ المتُكاثِفةُ المُتشابِكةُ. وعلى بُعدٍ لا يَتعدّى المئتَيْ مترٍ، تَظهرُ شجرةٌ عاليةٌ جدّاً، تُوزِّعُ أغصانَها **بزَهوٍ** على جَنَباتِها. لَعلَّها السِّنديانةُ الّتي يَكمُنُ تحتَها أبو رشيدٍ.

المتطفّلُ: المتدخّلُ من دونِ أن يَدعُوَهُ أحدٌ.
الزّهوُ: الفخرُ، التّيهُ والكِبْرُ.

لَقَدْ مَضى أكثرُ مِن ساعةٍ ونحنُ بَينَ الانتظارِ والتَّرقُّبِ والقَلقِ. وكأنْ لا حياةَ في أعماقِ هَذه اللُّجَجِ الخضراءِ، لَولا بعضُ أصواتِ الشّحاريرِ.

قُلتُ مُخاطباً نَفْسي: «لَو لَم تَكُنْ **بِصَدَدِ** صَيدٍ خطيرٍ، لَما وفَّرْتُ واحداً مِن تلكَ الشّحاريرِ. إنَّ صوتَها يُثيرُني».

ولَمْ أُنهِ تَفكيري حَتّى دَوّى صوتُ الرَّصاصِ.

... إنَّها الخنازيرُ، ولا شكَّ!!!

وقَدِ انقلبَتْ أجواءُ الصّمتِ والانتظارِ إلى ضجيجٍ وقَلقٍ. وتَردَّدَتْ أصواتُ شخيرٍ غريبٍ. إنَّها بالقُربِ منّا... بالقُربِ منّا!!!

- ما هَذا؟ قالَ زيادٌ:

- إنَّ الخنازيرَ قُربَنا... إنَّها هُنا!..

وصوَّبْتُ نَظَري وبُندقيَّتي إلى ذَلكَ المَمرِّ. ولَكِنَّ الأصواتَ اختلطَتْ بِنُباحِ الكلابِ. ومِن غَيرِ أنْ أتحكَّمَ بوَعيي أطلقْتُ الطّلقةَ الوحيدةَ باتِّجاهِ المَمرِّ

الصّدَدُ: القَصدُ، المَيلُ.

قبلَ أنْ يَتنبَّهَ زيادٌ للأمرِ. وصَرخْتُ:

ـ لقَدْ أَصبْتُه... لقَدْ أَصبْتُه!..

قالَ زيادٌ:

ـ احذَرْ مِنَ التَّقدُّمِ، فلَعلَّ إصابتَهُ ليسَتْ قاتلةً. علَيْنا أَنْ **نتريَّثَ** قليلاً.

ولَمحْتُ الكلابَ تَركضُ في ذَلكَ المَمرِّ، ويَعلو نُباحُها فيَختلِطُ بشَخيرٍ غريبٍ.

ردَّدْتُ قولي: «لقَدْ أَصبْتُه! نعمْ لقَدْ أَصبْتُه!.. وها هِي الكلابُ تُحوِّمُ حولَهُ تُحاولُ مُهاجَمتَهُ!»

وسَمِعْنا صوتَ أبي رشيدٍ يُنادينا لِنتقدَّمَ بحذَرٍ إلى المكانِ.

ولَكِنَّ أصواتَ الكلابِ أَخذَتْ تَبعُدُ قليلاً قليلاً في الوادي.

واجتمَعَ شَملُ الصَّيّادينَ عِندَ المَمرِّ، والوُجوهُ حائرةٌ. إنَّهُ قدْ أُصيبَ. هَذه بعضُ نُقَطِ الدّمِ، والكلابُ تُطارِدُه. ما العملُ؟!

تريّث: أبطأ وتمهّل.

قالَ أبو رشيدٍ:

ـ سُلاحِقُ أصواتَ الكلابِ قبلَ أن تَبعُدَ، ونَتبَعُ خيطَ الدَّمِ هَذا.

وقالَ أبو سليم متأسِّفاً:

ـ لقَدْ مرَّ القَطيعُ في غَفلةٍ منّي بَينَما كُنتُ أُشعِلُ سيكارةً، فأطلَقْتُ النّارَ علَيْهِ ولَم أتمكَّنْ مِنهُ، فأكملَ هروبَهُ نَحوَكُم. يا لَلحَظِّ!

وهزَّ أبو رشيدٍ رأسَهُ وقالَ:

ـ سنَتمكَّنُ مِنهُ. علَيْنا ببَعضِ السُّرعةِ.

ولَكِنْ مِن أينَ لنا بالسُّرعةِ في هَذه المَمرّاتِ الوَعْرةِ الضَّيِّقةِ؟ ثُمَّ علَيْنا أن نَتبعَ خيطَ الدَّمِ المُتقطِّعَ، فهو وحدَهُ الّذي يُرشِدُنا إلى الطّريقِ، لأنَّ نُباحَ الكلابِ قَد خفَّ ولَمْ نَبقَ نَسمعُ مِنهُ إلّا الصَّدى.

كانَتْ أعصابُنا مشدودةً، حَتّى لا يَكادُ الواحدُ منّا يَتفوّهُ بكَلِمةٍ . فالقَلقُ يَشُدُّ الوُجوهَ شدّاً. وما لَبِثْنا أن سَمِعْنا نُباحاً مُتقطِّعاً، وحَشْرَجةً. فكانَتِ المفاجأةُ:

الحَشرجَةُ: الغرغَرةُ وتردُّدُ النَّفَسِ عندَ الموتِ.

أَحدُ الكلابِ قَد أُصيبَ بنابِ الخِنزيرِ، وقَدِ ارتمى أرضاً في نِزاعٍ أَليمٍ. وصلَ أبو رشيدٍ وانحنى على الحيوانِ الجريحِ وهو يُتمتِمُ: «خسِرْنا أَقوى الكلابِ». وكادَتِ الدّمعةُ تَنفُرُ مِن عَينِهِ. ولَكنّه قالَ:

ـ لِنُتابعِ السَّيرَ. فلَنْ يَكونَ الخِنزيرُ بعيداً. لقَدْ تَعاركَ هو والكلابُ ولَنْ يَبتعِدَ كثيراً. لَعلَّ الكلبَيْنِ الباقِيَيْنِ سيَقضيانِ علَيْه.

وقَدْ صَحَّ توقُّعُه. فلَمْ نَقطعْ مسافةً قصيرةً حتّى أَشرَفْنا على حافَةِ ساقيةٍ. هُناكَ كانَتِ المفاجأةُ الثّانيةُ: الخِنزيرُ البَرّيُّ يَشخُرُ بجانبِ صخرةٍ كبيرةٍ، والكلبانِ يَدورانِ حَولَهُ ولا يُهاجمانِهِ، فَرُبَّما قَد أرعبَتْهُما إصابةُ رفيقِهِما.

ولَكِنَّ أبا رشيدٍ كانَ قدْ أَنهى الأمرَ في لحظةٍ، فاخترقَتِ الرَّصاصةُ القاضيةُ رأسَ الخِنزيرِ فمزَّقَتْهُ، وانقَلَبَ أرضاً وهو يَخبِطُ التّرابَ بقَوائمِهِ ليَغوصَ في بِركةٍ مِنَ الدَّمِ.

النِّزاعُ: لَفظُ الأنفاسِ الأخيرةِ والإشرافُ على الموت

وتَقدَّمَ العمُّ مِنَ الكَلبيْنِ، فقبَّلَهُما ومسحَ عرقَهُما. ثُمَّ خَطا نَحوَ الخِنزيرِ وقَدْ تَقطَّعَتْ أنفاسُه، ووضعَ رِجلَهُ على رَقَبتِهِ قائلاً:

ـ شَفَيْتُ نفسي بهَذه الرّصاصةِ. فقَدْ قَتلْتَ أَفضلَ كلابي.

ثُمَّ تفحّصَهُ، ونظرَ إلَيْنا وقالَ:

ـ كانَتْ إصابتُه الأولى في فَخِذِهِ.

في تِلكَ اللَّحظةِ تَنبَّهْتُ لنفسي وشَعرْتُ بشيءٍ مِنَ النَّشْوةِ، وقَدْ تذكَّرْتُ أنّني الصّيّادُ الّذي أطلقَ النّارَ على الخِنزيرِ فأَصابَهُ في فَخِذِهِ.

ولَكِنَّ فَرحتي لَم تَكُنْ بقَدْرِ ما أُريدُ، إذْ شَعرْتُ بالحُزنِ على الكلبِ. وأَردْتُ أَن أُعبّرَ عَن هَذا الشّعورِ للعمِّ أبي رشيدٍ، ولَكِنَّهُ أجابَ:

ـ لا علَيْكَ. لقَدِ اعتَدْنا مثلَ هَذه الحالاتِ. سنُرَبّي غيرَهُ. أمّا أنتَ فقَدْ صِرْتَ صيّاداً ماهراً. كُنتَ تَخشى أَن لا تَرى الخِنزيرَ، وها أَنتَ تَصطادُه اليومَ!

أعادَتْ إليَّ هَذه الكَلِماتُ نَشْوةَ الانتصارِ. لقَدِ

اصْطَدْتُ الخِنزيرَ البَرّيَّ!

أَخذْنا نُجهِّزُ طريقَ العَودةِ. حضَّرْنا غُصنَيْنِ قويَّيْنِ مِن أعصانِ السّنديانِ، وجَعلْناهُما مَحْملاً لِلطّريدةِ الضَّخمةِ ورَبطْناها علَيْهِما.

نَسينا في الطّريقِ ثِقَلَ الحِملِ وتَعبَ الرّحلةِ. وبدَأْنا نُصعِّدُ مُجدّداً نَحوَ مزرعةِ «الصَّويرةِ»، فنَقطَعُ الصّمتَ بثَرثراتٍ متنوِّعةٍ عَنِ الصّيدِ والخنازيرِ والكلابِ. وكانَتْ نَشْوةٌ **تُخامِرُني** بينَ الحينِ والآخَرِ، **فأَسهو** عَنِ الثَّرثرةِ وأنا أَتصوَّرُ سعادتي عندَما سأَروي أحداثَ هذه الرِّحلةِ على مَسمَعِ الأهلِ والرُّفقاءِ.

تُخامِرُني: تُداخِلُني.

سَها عنِ الأمرِ: غَفِلَ عنهُ ونسيَهُ.

الاستثمارُ التّربويُّ

11 غُرباءُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ما الظُّروفُ الّتي جمعَتْ كاملاً وحمّاداً؟ وأين التقيا؟ وإلى أين ترافقا؟

2 مَن هو إبراهيمُ؟ وما رأيُكَ فيه من خلالِ معاملتِهِ لكاملٍ وحمّادٍ؟

3 لماذا استعاد كاملٌ وحمّادٌ، في تلكَ اللّيلةِ الباردةِ، ذكرياتِهما؟

4 بِمَ كان يَعملُ كلٌّ مِن كاملٍ وحمّادٍ؟

5 هل كان الولدانِ يفرحانِ أحياناً بعملِهما؟ متى؟ وما الأماني الّتي كانا يُمنّيانِ النّفسَ بها؟

6 ما المفاجأةُ الأولى الّتي أعدَّها الجِملاوي للولدين؟ وكيف عبّرا عَن فرحِهما بها؟

7 ما القاسمُ المشترَكُ بين حياةِ الجملاوي وحياةِ كاملٍ وحمّادٍ وسائرِ النّاسِ الّذين يتدفّقون إلى المدينة؟

8 في شخصيّةِ الجِملاوي تَناقضٌ واضحٌ؛ بيِّنْهُ وحاولْ أن تحدِّدَ أسبابَهُ.

9 كيفَ انعكسَ التّحوّلُ الّذي طرأَ على الجملاوي، على الولَدَين؟

10 ما رأيُكَ في خاتمةِ هذه القصّةِ؟ وهل انتهتْ، في رأيِكَ، غُربةُ كاملٍ وحمّادٍ، وتحقّقَ «حُلمُ الطّفولةِ الهاربُ منذُ سنواتٍ»؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1 مِن خلالِ مأساةِ أبي كامل، كيفَ تتصوّرُ حياةَ أهالي القُرى الجنوبيّةِ، أمامَ الاعتداءاتِ الإسرائيليّةِ المُتواصِلةِ؟

2 وكيفَ تَتصوّرُ حياةَ مَن هَربوا مِن قُراهُم ولَجؤوا إلى المدينةِ، في ضَوءِ ما قالَهُ كاملٌ وحمّادٌ عَن أكواخِ إبراهيمَ وغُرفةِ الحملاوي؟

3 لماذا، في رأيِكَ، يَحلُمُ أبناءُ القُرى، وخصوصاً الأطفالَ، بالعيشِ في المدينة؟ وهل هُم على حقٍّ في حُلمهم هذا؟ علِّلْ إجابتَكَ.

4 جاء في القصّةِ: «فالكهرباءُ لَم تصلْها (الغرفة على السّطح) لأنّ الحملاوي لم يُتعبْ نفسَهُ بإيصالِ الحضارةِ إلى هذه الغُرفة الصّغيرةِ»؛ هَل تُعتبرُ الكهرباءُ مَظهراً مِن مظاهرِ الحضارةِ؟ لماذا؟

5 هَل تَرى في انفصالِ الأولادِ عَن أهلِهم، بعضَ الإيجابيّاتِ على مُستوى مُواجَهةِ الحياةِ وتدبُّرِ شؤونِهم فيها؟ علِّلْ إجابتَكَ.

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 حدِّدْ نَوعَ كلٍّ مِنَ الصُّورِ البيانيّةِ التّاليةِ، ثُمّ اشرَحْها:
الحملاوي يخافُ مِن جابي الكهرباءِ ومِن فاتورةِ حسابِهِ ـ يُحدِثُ دقائقَ اللّيلِ وثواني الظّلامِ ـ أحدثتِ الذّكرى تحتزُّ الأيّامَ الماضيةَ ـ ذلكَ المجمعُ البشريُّ يُذكّرُني ببراري المناعر في قريتنا ـ كأنَّ قسماتِ وجهِهِ تتبدّلُ كما تتبدّلُ صفحاتُ أيّامِهِ ـ تتعطّرُ أنفاسُ الصّباحِ المبكرِ إلى النُّهوضِ.

2 أعِدْ صياغةَ كلٍّ مِنَ العباراتِ التّاليةِ، بأسلوبِكَ الخاصِّ، محافظاً

على المَعنى:

- العبوسُ يَسودُ الوُجوهَ، إلّا الأولادَ، فإنَّ مُتعَةَ السَّفَرِ وتَعرُّفِ عالمٍ جديدٍ تَطفحُ في وجوهِهِم بَسَماتٍ خجولةً يَعرِفونَ كيفَ يُخفونَها عَنِ الرِّجالِ والنّساءِ، وهُم يَشعرونَ بخُطورةِ المَوقفِ.
- كَم تعلَّقتْ عيونُ الأطفالِ في الدّواليبِ، وتَمنَّتْ لو يكونُ لها مَقعدٌ في جوفِ هذا الغولِ الّذي يبتلعُ المُسافرين كلَّ صباحٍ، يبتلعُهم ولا يُعيدُ منهم إلّا القِمّة.
- منذُ ثلاثةِ أعوامٍ ونحنُ نطحنُ غُبارَ الشّوارعِ، نبيعُ العلكةَ، ونحمِلُ السّلَّ الكبيرَ في السّوقِ، ونَتقاضى بعضَ القروشِ لنُشبعَ البطنَ الفارغَ وجُيوبَ إبراهيمَ الّتي لا تشبَعُ.

3. تَخيَّلْ في ما لا يُجاوِزُ خمسةَ عَشَرَ سطراً، ما حصلَ لكاملٍ وحمّادٍ بعدَ موتِ الجملاوي.
4. فصِّلْ إعرابَ كلماتِ العِباراتِ التّاليةِ:
   - كيفَ حالُكَ يا حمّادُ؟
   - مَنْ يَدري؟
   - هَلْ في الخزانةِ شيءٌ تريدُهُ؟

المغامرةُ الصّغيرةُ

(1) في الفَهمِ والتّحليلِ

1. ما علاقَةُ عُنوانِ القصّةِ بمضمونِها؟
2. عَلامَ تقومُ الحياةُ في مدينةِ «مدور»؟ ما دليلُكَ؟
3. ماذا عنى الكاتبُ بقولِهِ: «وجاءَتْ روزي فانطَفأَ الشّوقُ

واشتعلَتْ نارُ الحنانِ»؟

4. لماذا كان حوبيرُ مُستمتعاً وسعيداً بعمِهِ، على زعمِ أنّهُ مُضْنٍ؟

5. يَشعُرُ الإنسانُ أحياناً بعضِ الأمورِ قبلَ حصولِها، فينتابُه إحساسٌ غريبٌ؛ هَل تجدُ مِثل هذهِ الحالةِ في القصّةِ؟ وضِّحْ إجابتَكَ.

6. لماذا ذهبتْ روزي إلى الغابةِ؟

7. بأيِّ حالةٍ وَجدَها والدُها؟

8. حوبيرُ يَعملُ في قطعِ الأشجارِ، أفلا يستحقُّ العقابَ على عملِهِ هَذا؟ علِّلْ إجابتَكَ.

9. كيفَ ظهرَتْ لكَ مروءةُ أهلِ «مَندوز» وتضامُنُهم؟

2 مِن وَحْيِ النّصِّ

1. هَل توجدُ في لبنانَ مِهنةُ قَطعِ الأشجارِ؟ لماذا؟

2. لماذا يجبُ أن يُعاقَبَ كلُّ من يقطعُ الأشجارَ في بلدِنا؟

3. هل يجوزُ للأولادِ أن يخرُجوا من البيوتِ، ولو لوقتٍ قصيرٍ، مِن دونِ إعلامِ أهلِهِم؟ لماذا؟

4. أما زالَتِ المروءةُ والنّخوةُ مِن ميزاتِ اللّبنانيّين في أيّامِنا هَذهِ؟ أيِّدْ إجابتَكَ بالبراهين

5. عدِّدْ أبرزَ الصّناعاتِ الّتي تكونُ الأشجارُ مادّتَها الأوّليّةَ.

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. ينتشِرُ في القصّةِ حقلٌ مُعجميٌّ واسعٌ لحالةِ السّعادةِ الّتي تعيشُها عائلةُ حوبير؛ استخرِجْ عشْرَ جُملٍ على الأقلِّ تعكسُ هذه الحالةَ.

2 وفي القصّة أيضاً حقلٌ مُعجميٌّ واسعٌ لحالةِ القلق الّتي سادت الوالدَينِ؛ استخرِجْ عَشْرَ جُملٍ تعكسُ هَذهِ الحالةَ.

3 حوِّل المقطَعَ التّالي إلى صيغة المُثنّى ثُمَّ إلى صيغة الجمع، مغيّراً ما يلزمُ تغييرُهُ. «إنّها في المدرسة الآن. لم يحِنْ بعدُ وقتُ عودتها إلى البيت. لا شكَّ أنّها تسرحُ وتمرحُ مع رفقتِها. إنّها توزّعُ الفرحَ على الجميع كما تفعلُ في البيت، لا شكَّ في هذا...».

4 استخرِجْ مِنَ المقطعِ التّالي الأسماءَ المنصوبةَ، وحدِّدْ سببَ نصبِ كلٍّ منها.

«كانَ العملُ في الغابةِ مُضنياً. ولكنَّ جوبيز قد اعتاد حياةَ الغابة مُنذُ طُفولتِه، فألِفَتْ نفسُه الطّبيعةَ القاسيةَ، حتّى تحوَّلَ عملُه إلى مُتعةٍ يوميّةٍ يُجدِّدُ فيها نشاطَه ويُقوّي ثقةً بنفسه. فما زال قادراً على تحطيمِ كلِّ جذعٍ يصلُحُ للقطع مهما يكُنْ ضخماً وعنيداً».

3 القلبُ المُتعَبُ

في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ما العَوارِضُ الّتي دلّتْ على أنَّ سعادَ مريضةٌ؟

2 لماذا شعرتْ سعادُ بأنَّ زوجَها قد تأخّر في الوُصولِ إلى البيت، معَ أنّهُ وَصلَ في الوقتِ المعتادِ؟

3 لماذا اعتبرَ كمالٌ أنّهُما استعجَلا الزّواجَ؟ وهَلْ كانَ على حقٍّ في اعتبارِهِ هَذا؟ لماذا؟

4 شَعرَ وليدٌ، على رُغمِ صِغَرِ سنِّه، بأمرٍ غريبٍ عندَ الغداءِ، فكيفَ

عَبّرَ عَن هَذا الشّعور؟

5 لماذا لم يستشرْ كمالٌ وسعادُ الطّبيبَ منذُ المرّةِ الأولى الّتي شعرَتْ فيها سعادُ بضيقِ الصّدرِ؟

6 كيفَ كانتْ رِدَّةُ الفعلِ عند كمالٍ حين جاءَهُ خبرُ نقلِ زوجتِه إلى المستشفى؟

7 وكيفَ كانَتْ حالتُه أثناءَ إجراءِ العمليّةِ الجراحيّةِ لسعادَ؟

8 في القصّة صورةٌ لضغطِ الحياةِ العصريّة وانعكاسِها على حياةِ النّاس؛ كيفَ ظهرَتْ لكَ؟

مِن وَحْيِ النّصّ

1. أَحَسناتٍ وإيجابيّاتٍ ترى في الزّواجِ المبكّرِ، أم سيّئاتٍ وسلبيّاتٍ؟ علّلْ إجابتَكَ.

2 هل توافُرُ المالِ في العائلةِ سببٌ كافٍ لضمانِ السّعادةِ العائليّة؟ لماذا؟

3 ما الوظيفةُ الّتي تَحلُمُ بتسلُّمِها عندَما تكبَرُ؟ ولماذا؟

4 وهلْ تُخطّطُ لمُستقبلٍ ناجحٍ منذُ اليومِ؟ كيفَ تفعلُ؟

5 أتفضّلُ أن تعملَ زوجتُكَ في المستقبل، أم تُريدُ لَها أن تبقى ربّةَ منزلٍ لا تعملُ إلّا في البيتِ؟ لماذا؟

6. هل تَرى أنّ الطّبَّ متقدّمٌ في لبنانَ؟ علّلْ إجابتَكَ.

7 «الحُبُّ أقوى مِنَ الموتِ يا كمالُ...» هَل تؤمنُ أنتَ بهَذهِ النّظريّةِ؟ لماذا؟

في التّعبير واللُّغة

1 لخّصْ أحداثَ هَذهِ القصّةِ في ما لا يجاوِزُ خمسةَ عَشَرَ سطراً.

2 تخيَّلْ وليداً يُثرثرُ أثناءَ العداءِ مُحمراً والديْهِ أحمرةً في المدرسةِ، وانقُلْ إلينا ثرثراتِهِ على لسانِهِ.

3 أوِّلِ المصدَرَ من «أنْ وما بعدَها» في العباراتِ التّاليةِ، وحدِّدْ محلَّهُ في الإعرابِ:
كانَ علينا أنْ نؤمِّنَ مُسبقاً أكثرَ قبلَ أنْ نُقدِمَ على هَذهِ الخُطوةِ - أرجو أنْ لا يطولَ سفرُكَ - عليكَ أنْ ترتاحَ قليلاً - لم يتجاسَرِ الرّوحانُ على أنْ يتحدَّثَ - أريدُ لها أنْ تعيشَ - هل بإمكانِها أنْ تعودَ إلى البيتِ؟

4 فصِّلْ إعرابَ كلماتِ العبارةِ التّاليةِ:
أيّامٌ ليسَتْ مِن عُمرِنا يا سعادُ، كانَتْ تجربةً قاسيةً كادَتْ أنْ تقضيَ على سعادتِنا.

4 مَرَحُ الشّبابِ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 كيفَ ملأَ الكاتبُ وقتَهُ أثناءَ الانتقالِ «بالبوسْطةِ» إلى المخيَّمِ؟

2 أيُّ نوعٍ من المخيّماتِ كانَ ذلكَ المخيَّمُ؟ وما الهدفُ مِن إقامتِهِ؟

3 ماذا عَنى عادلٌ بقولِهِ: «سنكونُ قُدوةً... لا تنسَوْا أنّنا جميعاً غُرباءُ في هَذهِ القريةِ»؟

4 ولماذا أجابَهُ وسامٌ (الكاتبُ): «لَن نكونَ غُرباءَ يا عادلُ، أبداً»؟

5 كيفَ استقبلَ شبابُ القريةِ شبابَ المخيّمِ؟ وماذا يَعكسُ هَذا الاستقبالُ مِن عاداتِنا؟

6 لماذا شغل الأستاذة مشهدُ العجوزِ الّذي يركبُ دابّته، وبقراتُه تُهرولُ أمامَهُ؟

7 لماذا تعجّبَ ودهشَ موكبُ المخيّمين عندما دعاهُمُ المختارُ جميعاً إلى العشاءِ؟

8 كيفَ بدَتْ لكَ الحياةُ في المخيّمِ؟ ولماذا؟

9 ما الأعمالُ الّتي قامَ بها المخيّمُ؟

10 ما العلاقةُ الّتي تكوّنَتْ بينَ وسامٍ (الكاتب) وندين؟ علّلْ إجابتك.

مِن وَحْيِ النّصّ

1 هل تُحبُّ أنتَ المُشاركةَ في المُخيّمات؟ وفي أيِّ نوعٍ منها؟ ولماذا؟

2 ما الانطباعُ الّذي تكوّنَ لديكَ عن أهلِ القريةِ اللّبنانيّة؟ وهل قرّبكَ منهُم ومنها؟ لماذا؟

3 قالَتْ جرمينُ: «لقدْ حذّرونا مِن طعامِ اللّبنانيّين. إنّهُ لذيذٌ جدّاً، ولكنّهُ يُتعبُ المَعِدَةَ بسُرعةٍ». هَل هي على حقٍّ في قولِها؟ لماذا؟

4 ذكرَتْ نَدينُ الشّاعرَ لامَرتينَ وحبَّهُ للأرزِ وللُبنانَ؛ فمَنْ هو لامَرتينُ؟ وما علاقتُه بلبنانَ وأرزِه؟

5 قال الكاتبُ: «هَذهِ هيَ الفتاةُ الأجنبيّةُ. هَذهِ هيَ حرّيّتُها. تعبّرُ عمّا في داخِلها بعفويةٍ وصدقٍ، مِن غيرِ تحفّظٍ. هذه هي حياتُها. ولِمَ الخجلُ؟ ولِمَ الحذرُ؟ حياتُها مُلكُها، إرادتُها مُلكُها، فِكرُها مُلكُها».
هَل تؤيّدُ أنتَ أن تكونَ الفتاةُ اللّبنانيّةُ على هَذهِ الصّورةِ؟ لماذا؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 جاء في ختام القصّة على لسان وسام مخاطباً نديم: «سنبقى وراءَ تلكَ الأجنحة المنبسطة للرّيح. سنبقى».
في ما لا يُجاوِزُ عشرين سطراً، تخيّلْ كيف حصل لقاءُ وسام ونديم، وماذا نتج منهُ. أخبِرْنا بأسلوبٍ شائقٍ.

2 أوردَ الكاتبُ مُقتطفاتٍ غيرَ مُكتملةٍ من الحوارِ الّذي دارَ بينهُ وبين نديم: «أنتُمُ الشّرقيّين... أحلامُكُم... عاداتُكُم... تقاليدُكُم... أنتُمُ العربيّين... حضارتُكُم... حرّيّتُكُم... عيونُكُم... أنتُم... نحنُ...».
أكمِلْ مضمونَ هذا الحوارِ مالئاً مكانَ النُّقطِ بما يتمّمُ المعنى.

3 بيّنْ إعرابَ كلٍّ من الجُملِ الموضوعةِ بين قوسين:
ولكنّي (لم أُميّزْ وجوهَ أصحابها). - إهتمامي بنفسي قد (شغلني) - تَعبُرانِ وجهاً (لَم يُثِرِ اهتمامي). - قاطعَ تأمّلاتي صوتُ المسؤولِ (وهو (يُعلنُ) عن وصولِنا). - أدركْتُ (أنّي (لَن أشعُرَ) بالغربة). - وأطلَّ الطّربوشُ الأحمرُ من الباب (يحتالُ). - لم تَكُنْ هذهِ الأحاديثُ (تُثيرُ اهتمامي). - إنّها نديمُ (تنتصبُ) بقامتِها أمامي. - خيوطٌ (جَمَعَها مَرَحُ الشّبابِ).

صيدُ الخنزيرِ البرّيّ

① في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ما الّذي يدلُّ على أنّ الكاتبَ كان يذهبُ للمرّة الأولى، لصيدِ الخنزيرِ البرّيّ؟

2. لماذا ينطلقُ الصّيادون دائماً إلى الصّيد قبل بزوغ الفجر؟
3. ما الّذي يدلُّ على أنّ أبا رشيدٍ وأخاهُ أبا سليمٍ كانا خبيرَين بصيد الخنازير البرّيّة؟
4. قال زيادُ للكاتبِ عندما نبحَ أحدُ الكلابِ:... «الكلابُ أخذَتِ الرّيحَ»، ما معنى هذا الكلامِ؟ وضِّحْ إجابتك.
5. لماذا كانَ فرَحُ الكاتبِ عارماً، وشعَرَ بنشوةِ الانتصارِ عندَ اصطيادِهِ الخنزيرَ؟
6. لماذا راحَ الكاتبُ يتصوّرُ مقدارَ سعادته عندما سيروي أحداثَ الرّحلةِ على مَسمَعِ الأهلِ والرُّفقاءِ؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1. ما شعورُكَ نحوَ الصّيدِ والصّيّادينَ؟ ولماذا؟
2. النّهوضُ باكراً إلى الصّيد يُخالطُه عند الصّيّادين شعورٌ خاصٌّ. صِفْهُ مستنداً إلى أحداثِ القصّةِ.
3. كثيرونَ من الصّيّادين يرغبونَ في الصّيد لما يُرافقُه من اختلاطٍ بالطّبيعة؛ هَل تَرى الأمرَ صحيحاً؟ لِماذا؟
4. هَل تُستعملُ عياراتُ الخرطوشِ نفسُها لكلِّ أنواعِ الصّيدِ؟ زوِّدْنا بمعلوماتِكَ في هذا المجالِ.

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. أعِدْ صياغةَ كلٍّ من العباراتِ التّالية، بأسلوبكَ الخاصِّ، محافظاً على المعنى:

- لَم أعِ كيفَ ارتديْتُ ثيابي وحملْتُ بندقيّةَ الصّيدِ وبعضَ الطّعامِ. ولَم تَمضِ دقائقُ حتّى صِرتُ متأهّباً عندَ بابِ السّيّارة

- ولَكنَّ القمرَ المُرتميَ على رؤوسِ الهضابِ قَد أكسبَ الأجواءَ رَوعةً وبهاءً، فأحسَسْنا بنشوةِ الشّبابِ تَتدفّقُ في أعماقِنا.
- كانَ صَمتُ اللّيلِ الرّهيبُ تعكّرُهُ هَذهِ الثّرثراتُ، وطقطقاتُ الحجارةِ النّافرةِ تحتَ أرجُلِ الصّيّادينَ. ولَكنَّها تَمحو مِنَ الذّهنِ مَوقِفَ الوجَلِ أمامَ رَهبةِ الوادي، وذِكرِ الضّباعِ والذّئابِ والخنازيرِ البرّيّةِ.
- لَم تكُنْ خيوطُ الفجرِ قَد تسرّبَتْ بعدُ إلى تلكَ الجَنَباتِ المُظلِمةِ. وكانتِ العتمةُ لا تزالُ تغلّفُ المكانَ بوشاحٍ شفّافٍ يترُكُ خلفَهُ ظِلالاً وخيالاتٍ.

2. صوِّرْ لنا الكاتبَ وهو يَروي أحداثَ الرّحلةِ على مَسمَعِ الأهلِ والرّفقاءِ، لافتاً إلى ردّاتِ الفعلِ عندَهُم.
3. بيِّنْ ما أفادَتْهُ «قَدْ» في كلٍّ من العباراتِ التّاليةِ، واستنتِجْ قاعدتَها:
   - هيّا أسرِعْ في تَحضيرِ نفسِكَ. قَد نتأخَّرُ عَنِ المَوعِدِ.
   - كانَتْ أيّامُ تشرينَ قَد حَمَلَتْ برودةً.
   - فقَدْ ترتدُّ الخنازيرُ الشّرِسةُ إليْهِ.
   - وقَد انقلبَتْ أجواءُ الصّمتِ إلى ضَجيجٍ.
   - لَقَدْ أصَبْتُه.
   - قَد يَقفِزُ الخِنزيرُ بَينَ لحظةٍ وأُخرى.
4. فصِّلْ إعرابَ كَلماتِ العباراتِ التّاليةِ:

قالَ أبو رشيدٍ: سنَمُرُّ ببَيْتِ أخي أبي سليمٍ - سألْتُ أبا رشيدٍ. ولكنَّ صوتَ أبي رشيدٍ قَد نبّهَني.

مـحتـوى الكـتـابْ